المؤدِّبون وتجربتهم في تعليم العربية

سليمان بن إبراهيم العايد

أستاذ الدراسات العليا ـ كلية اللغة العربية

بجامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

وبعد، فإنّه يُسْهِمُ في درس العربيّة في عصورها المختلفة فئاتٌ من المنتسبين إلى علومها بوجهٍ ما، أو المفيدين منها فائدةً ما، وهذه الفئات مختلفة الاتّجاهات والمشارب، فمنهم العلماءُ المشتغلون بتدوين العلم وكتابته، وضبطه وروايته، ومنهم الأدباءُ، والمعلمون، والمؤدِّبون، والكتّاب، وطوائف أخرى غيرهم ممّن يعنى بتطبيقاتِ العربية على علومهم وفنونهم.

وكان المرتجى من التاريخ أن ينصف هذه الفئاتِ، وألاّ ينسى جهادها وجهدها، غير أنّ كتب التراجم والتاريخ اقتصرت في تراجمها على خَدَمَةِ العربية: المصنفين، أو الرواة، وأهملت سواهم ممّن كان له باعٌ طويل في خدمتها تعليماً وتأديباً، إذا لم يكن لهم حظٌّ من التأليف، وهم عديدٌ لا يحصى، وهذا مأخذ يؤخذ على كتب تراجم النحاة واللغويين، وقد شعر به بعضهم، وأبان عنه، حين قال: «... وما أخللنا بذكر أحدٍ إلاّ لسببٍ، إمّا لأنّه ليس بإمامٍ، ولا معوَّل عليه، وإمّا لأنّه لم يخرج من تلامذته أحدٌ يحيي ذكره، ولا من تأليفه شيءٌ يلزمُ النّاسَ نشره، كإمساكنا عن ذكر اليزيديّين، وهم بيت علمٍ، وكلّهم يرجعون إلى جدّهم أبي محمّد يحيى بن المبارك اليزيديّ، وهو في طبقة أبي زيدٍ، والأصمعيّ، وأبي عبيدة، والكسائيّ، وعلمُه عن أبي عمرو، وعيسى بن عمر، ويونس، وأبي الخطّابِ الأكبر، وقد روى عن أبي عمروٍ القراءة المشهورةَ في أيدي النّاس إلاّ أنّ علمه قليلٌ في أيدي الرواة إلاّ في أهل بيته وذُرِّيَّتِه، وهو ثقةٌ أمينٌ، مقدّم مكين»[1].

(١) أبو الطيب اللغوي / مراتب النحويين ص ١٥٥.

وهذا ظاهر في أنّ الطبقة العملية في تلقين العربية وتعليمها، من المعلِّمين، والمؤدِّبين غير مرعيّة في مصنّفاتِ تاريخ علوم العربية، وغير مكتوب عنها، إذْ لا يشار إلى شيء من أعمالهم إلاّ إشارةً عابرةً في ترجمةٍ حافلة، قد تكون غير مقصودة لذاتها، ولا يكتب عن طرائقهم وأساليبهم في تعليم العربيّة وآدابها، إلاّ بما لا يغني، ولا يشفي غلّةً، ولا يَبُلُّ صَدًى.

وقد رُتِّب على هذا أن نسي التاريخ، أو أسقط من ذاكرته عدداً غير قليلٍ، كان لهم فضلٌ في تعليم العربيّة، ونشر آدابها، وتلقين أصولها، وتثقيف ألسنة أبنائها، ويتمثَّل هذا في إهمال ذكر المؤدِّبين ممّن لم يؤلِّف، أو لم يشهر بروايةٍ، ولهؤلاء أثر عملي في النشاط اللّغوي. وفي إحياء ما فصح من اللغة ونشره، وحسن من التراكيب، وحلا من الأساليب، وتوظيف ذلك كله في لغة الحياة الأدبيّة، من خلال منهجٍ شاملٍ في التربية السلوكية اللغوية.

وما هذا العمل إلاّ التفاتةٌ إلى ماضٍ، دخل عالم النسيان، وودّع إلى دنيا الإهمال، مرغوباً عنه إلى غيره، ومكتفى عنه بما لا يكفي، فآملُ أن يتحقَّق لي بهذا العمل شيءٌ من أَمَلٍ، يفي لفئامٍ جاهدوا في سبيل العربيَّة شيئاً من حقِّهم، ويقفنا على شيء من طرائقهم، كي نفيد منه في درسنا للعربية في عصرنا، وهذه طريقةٌ تمليها طبيعة حركات الإحياء، التي تستوحي الماضي، ليبعث فيها الحياة، ونحن أُمَّة تدين بقول بعض السَّلف: «لا يصلح آخر هذه الأُمَّة إلاّ بما صلح به أوّلها»[1]. وما انطلقت نهضة في أمَّةٍ إلاّ سبقتها حركة إحياء لأسس حضارتها، ومقوماتها وخصائصها، ومن هذه الأسس، والمقوِّمات، والخصائص لغتنا العربيّة التي تمثِّلُ رابطاً يربطنا بتراثنا، وتمثِّلُ آلةً نُفَسِّرُ بها هذا التراث، وتمثِّلُ ظاهرةً من ظواهر الوحدة، ومظهراً من مظاهر الرقيّ الفكري والاجتماعي، وإنّ من الإحياء

(١) ابن تيمية / مجموع الفتاوى ١ / ٢٣١، ٢٤١، ٣٥٣.

أن نلتفت إلى ما كان يجري في الساحة اللُّغويَّة من طرائق الدّرس والتلقين، وأساليب التربية والتعليم، ومن هذا ما يتعلّق بطائفة المؤدِّبين، وعملهم التأديب، في عصر ازدهار اللغة وآدابها، وتفوّق الأُمَّة على من خالفها وناوأها، يوم أن كان غيرها يحاكيها ويقلّدها، وهي لا تقلِّد غيرها ولا تحاكيه، اكتفاءً بما لديها من مقوماتٍ حضارية.

جرت عادة العرب ـ خاصَة كبراءهم ـ على تربية أولادهم الذكور تربيةً خاصَّةً، تناسِبُ ما يؤمِّلونه فيهم من النبوغ والقيادة، وما يحتاج إليه مجتمعهم القبلي من الفروسيّة، والقدرة على الحجاج والبيان، والاعتماد على الذات منذ الصغر. ولهذا نجد حاضرة العرب تحرص على أن ترسِلَ أولادها إلى البادية تسترضع لهم المراضع، وتبحث عن الظِّئرِ التي لها أثر في خُلُقه وتكوينه، ولعلّ حادثة حليمة السعديّة ظِئر رسول الله ﷺ حين وفدت إلى مكة مع جمعٍ من نساء بني سعدٍ يبحثن عن أطفالٍ يتولّين رضاعهم مقابل أجرةٍ غير محدَّدةٍ يدفعها ذوو الطِّفل من قريشٍ، وكنّ يحرصن على أولاد الأثرياء، فكيف بغلامٍ يتيم مثل رسول الله ﷺ تَزورُّ النساء عن حضانته ورضاعته، ويتدافعن كفالته والقوامة عليه؟! فكان أن تدافعنه ليتمِه، ولعدم الطمع في أُمِّه، التي لا يتوقّع منها القدرة على دفع أجرٍ عالٍ، وكانت حليمة من تلك النساء ترغب في الأجر، غير أنّها حين لم تجد غيره أخذتْهُ لئلاّ تعيَّر بأنّها رجعت من غير شيءٍ، فكان ذلك الصَّبيّ بركةً على بيت حليمة، في قصّةٍ ليس هذا مقام إيرادها[1].

واستمرت طريقة حاضرة العرب في إخراج أولادها إلى البادية بُعيدَ الإسلام، وما أخبار أولادِ الخلفاء الأمويّين عنّا ببعيدٍ، ظهر ذلك في كلمة عبدالملك بن مروان حين لحن ابنه الوليد، إذْ «دخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشراف

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ١ / ١٦٠ - ١٦٧.

قريشٍ، فقال له الوليد: منْ ختنَكَ؟ قال له: فلانٌ اليهوديٌّ، فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلّك إنّما تسأل عن ختني، يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان»[1]. «وقال عبد الملك بن مروان: أضرَّ بنا في الوليد حُبُّنا له، فلم نلزمه البادية»[2].

وأمّا الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ (ت ٢٠٥ هـ) فقد تأدّب على هذا، كما قال عن نفسه: «ثمّ إنّي خرجْت عن مكّة، فلزِمْتُ هذيلاً في البادية، أتعلّم كلامها، وآخُذُ طبعها، وكانت أفصح العرب، قال: فبقيت فيهم سبع عَشْرَة سنةً، أرحَلُ برحيلهم، وأنزل بنزولهم»[3]. حتّى كان له من الشأن في اللُّغة والأدب ما هو معروف متداولٌ في كتب التراجم والأدب، وحتّى كان له ما ذكره في خبر لقياه مالكاً أنّه قال: «ابتدأتُ أن أقرأه (يعني الموطّأ) ظاهراً، والكتاب في يدي، فكلّما تهيّبْتُ مالكاً، وأردت أن أقطع أعجبه حُسْنُ قراءتي وإعرابي، فيقول: يا فتى، زِدْ، حتّى قرأتُه في أيّامٍ يسيرة»[4]. وقد عدّوا الشافعيّ إماماً في اللغة، واحتّجوا بلغته.

ولسائل أن يسأل: لماذا يحرِصُ علية القوم في العصور الأولى على تأديب أولادهم، ولهم من الجاه العريض، والدنيا، والسلطة ما يغنيهم عن مقاساة التأديب والتأدّب ومعاناتهما؟

من المعلوم أن الخليفة أو وليَّ الأمر، أو العامل في العصور الأولى كان يقوم بلسانه أمام الناس واعظاً ومذكِّراً، ومبيناً عن سياسته، وطريق حكمه في الرعية

(١) ابن عبد ربه / العقد الفريد ٢ / ٤٨٠.

(٢) السابق ٢ / ٤٨٠.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ١٧/ ٢٨٤.

(٤) السابق ١٧/ ٢٨٧.

والمال، ويطلب من الرعـيّة أن يقـوّموه إذا انحَـرف أو مال، أو اعـوجَّ به الطريق وضلّتِ السُّبُل، وتصويبه إن أخطأ، وتذكيره إن نَسِيَ أو سها، وكان هو الّذي يقوم بالشّعـائر التي تحتـاج إلى الفصـاحة، واللسـان؛ إذْ هو إمام الرعيّـة في الصلوات اليومـية، وإمـامهم وخطيـبهم في الصلوات الجـامعة، مـثل الجمـعة والعـيدين، والاستسقـاء والكسوف، وهي صلوات تصحبها خطب، فيـخطب فيهم بما يناسب المقام، وكـان لا يقلّ عن علماء زمـانه علماً بالأحكام الشـرعية، وأدلّـتها، وفـقه النوازل، وما يجـدُّ للأمّة في قضاياهـا وأقضيتـها، ويقرن عبـد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز بفقهـاء المدينة، والحسن، وابن شهابٍ، وغيرهم من الأئمّة، بل إن المنصور كان يقرنُ بمالكٍ (رضي الله عنهم) أجـمعين. وكان البيان ممّا يكمّل آلتهم القيادية الّتي تـتطلّب مخاطبة الأمَّة، ووعظها، وبيان سـياسة الحاكم، ويرون إسناد ذلك لغيـره نقصاً في تكـوينه، ومن هنا تعيَّن عليهم أن يـعنوا بمن يتوقَّع أن يئولَ إليـهم شيءٌ من هذا الأمر، كـأولاد الخلفاء، والقـادة، والوزراء، والأمراء، والكبراء، وعدُّ القصـور في عدّة البيان مثلبةً يُثْلَبُ بهـا الإنسانُ، ولعلّ هذا هو ما يقصدونه فيما يـؤثر عنهم من قول: «إنّ العربيَّة تزيد في العَقْلِ»[1]؛ إذ ليس المراد أن تعلُّمَ صنعةِ العربيّـة يزيد في العقل، وإنّما إجادة القول والقـدرة على التَّصرُّف فيه، ومراعاة المقامات، والأخذ بزمام الكلمة عنان العقل ورجاحته.

ولمّا شرع الخلفاء والعمّال في التّخلّي عن بعض مهمّاتهم، وما كان يقوم به أسلافهم، كالخطابة والإمامة، ضَـعُفَ داعي الفصاحة في نفوسهم، وإن بقيت فـيها همةٌ في ألاّ يُخْلوا أنفسهم من مشاركة ندمائهم، وجلسائهم، وخواصّهم، ومن يغشاهم من الرعية، ويدخل عليـهم من الفقهاء، وينتجعهم من الـشعراء وأهل الأدب، والكتاب وسائر العلماء، وأصحاب الحاجات، فكان اتجاههم إلى التأدّب وطلب المؤدِّبين.

(١) من كلمة لعمر بن الخطّاب، ياقوت / معجم الأدباء ١ / ٧٧.

والتأديب عملٌ تربـويٌّ شاملٌ يؤخذ فيه الطفل إلى تربيـةٍ معرفيَّـةٍ وسلوكيَّةٍ في شتّى العلوم تشمل حفظ ما يجب أو يحسن حفظه، ومعرفَة أصول العلم، وتحفّظ المسائل التي يحـتاج إليـها، وتمرينَ اللِّسانِ على الكلام والإنشـاء، وتنميـة ملكته الأدبيّة، وتمرينها على التمييزِ بين أنواع الكلام ومـقاماته، وتقويم سلوكه وأخلاقه، وتعليـمه كـيف يعامل الناس، وينزلهم مـنازلهم بحسب مـقامـاتهم، وتعظيم من يستـحقُّ التعظيم، ولعـلّنا نورد بعض كلماتٍ توضح مـهمّة المـؤدّب، ونبدأ ذلك بكلمةٍ لهـارون الرشيد؛ إذ يقـول لمعلِّم ولده محمّـد الأمين: «يا أحمر، إنّ أمـير المؤمنين قد دفع إليك مُهْجَةَ نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطةً، وطاعتَه لك واجبة، وكن له بحـيثُ وَضَعَك أمير المؤمنين، أقْرِئْه القرآن، وعـرِّفْه الأخبار، ورَوِّه الأشعـارَ، وعلِّمه السُّنَن، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعـه من الضّحك إلاّ في أوقاته، وخُـذْه بتعظيم مشـايخ بني هاشم إذا دَخَلوا عليه، ورفع مـجالس القُوّاد إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعةٌ إلاّ وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيدها إيّاه، من غير أن تحزنه فتـميتَ ذهنه، ولا تُمْعِنْ في مسامحته فيـستحلي الفراغَ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشِّدَّة والغلظة»[1].

وقد تتـجدَّد للتأديب مـقاصد بحـسب ما يُعَدُّ له المؤدَّب، ويُهَـيَّأ، فقـد «جعل الرشيد محمـداً الأمينَ في حجر الفضل بن يحيى، وعبد الله في حـجر جعفر بن يحيى، فقـال الفضل بن يحيى لهيـثم بن بشيرٍ الواسطيّ: ليكونَ أكثـر ما تأخذ به وليَّ العهد تعظيم الدماء، فإنّي أُحِبُّ أن يُشْرِبَ الله قلبـه الهيبة لها، والعفافَ عن سفكها»[2].

وقريب مـن هذا ما قاله العـبّاسُ بن مـحمّـد لمؤدِّب أولاده: «إنّك قدْ كُـفِيتَ

(١) ابن خلدون / المقدمة ٤٩٦.

(٢) البيهقي / المحاسن والمساوئ ٢ / ٢١٢ - ٢١٣.

أعراضَهم، فاكفني آدابَهم، علِّمهم كتاب الله (عزّ وجلّ) فإنّه عليهم نزل، ومن عندهم فُصِّل، فإنّه كفى بالمرءِ جهلاً أن يجهل فضلاً عند أحد، وفقههم في الحلال والحرام، فإنّه حابِسٌ أن يظلموا، وغذِّهم بالحكمة، فإنّها ربيع القلوب، والتمسني عند آثارك فيهم تجدني»[1].

* * *

قد يسأل سائل: أهناك فرق بين المعلِّم والمؤدِّب؟ فأقول:

إنّه لابُدَّ من التفريقِ بينهما، على الرغم منْ أنّه يحصل في كلام الأقدمين تعاقُبُ الكلمتين، وتواردهما على معنىً أو محلٍّ واحد؛ إذْ يختصُّ بعضهم بالمؤدِّبين أولئك الّذين كانوا يعلّمون ويؤدِّبون أولاد الخاصّة من الخلفاء، والعمّال، والقُوّاد، والوزراء، والقضاة، وأكابر القوم، بحيث يختصُّ بشخصٍ أو أكثر يتفرّغ لهم، ولا يشاركهم فيه العامَّة، وبحيث إنّه يأتي لهم حيث يسكنون، فيكون الدرسُ أشبه بالدروس الخصوصية المغلقة.

أمّا المعلِّم فهو ذاك الّذي ينشئ أو ينشأ له حلقة علمٍ في مسجد أو مدرسةٍ، أو مكانٍ ما، ويكون مشاعاً لعامَّة النّاس أو بشروطٍ.

وقد ألّف الجاحظ رسالة المعلِّمين، وقال فيها: «إنّما اشتق اسم المعلِّم من العلم، واسم المؤدِّب من الأدب، وقد علمنا أنّ العلم هو الأصل، والأدب هو الفرع، والأدَبُ إمّا خُلُقٌ وإمّا روايةٌ، وقد أطلقوا له اسم المؤدِّب على العموم»[2]. إلى أن قال ـ فيما يظهر أنّه من أعمال المؤدِّب ـ: «ويمنعهم العَرامةَ، ويأخذهم بالصلاة في الجماعة، ويدرّسهم القرآن، ويُهَدِّن ألسنتهم برواية القصيد والأرجاز،

(١) أبو حيّان التوحيدي / البصائر والذّخائر ٦ / ١٨٨.

(٢) الجاحظ / رسائل الجاحظ (رسالة المعلّمين) ٣ / ٣٤.

ويعاقبُ على التهاون، ويضرب على الفرار، ويأخذهم بالمناقلة، والمناقلة من أسبابِ المنافسة»[1].

فالمؤدِّبُ هو الّذي يأخذ المؤدَّب بعد أن يعرف مبادئ وأوّليات العلم، ويكون بمكنته متابعة ما يتصل بالأدب بسببٍ من قرآنٍ، وحديث، وكلام العرب نثرها وشعرها، وأخبار الماضين، وحكايات المعاصرين، وما في الكلام من ملح وطرائف، ونكاتٍ وعجائب، واختيار ما يستجاد من ذلك، ويعين على اختياره الذوق السَّليم، مع صفاتٍ أخرى فيه، سنأتي على ذكرها، إن شاء الله.

وقد فرَّقَ الجاحظ بين المعلّمين والمؤدِّبين، فقال: «والمعلِّمون عندي على ضربين: منهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولاد العامّة إلى تعليم أولادِ الخاصّة، ومنهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولادِ الخاصَّةِ إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة، فكيف تستطيع أن تزعم أنّ مثل عليّ بن حمزة الكسائيّ ومحمد بن المستنير الذي يقال له: "قطرب" وأشباه هؤلاء يقال لهم: حمقى، ولا يجوز هذا القولُ على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم، فإنْ ذهبوا إلى معلِّمي كتاتيب القرى، فإنّ لكلِّ قوم حاشية وسَفلةً، فماهم في ذلك إلاّ كغيرهم، وكيف تقولُ مثلَ ذلك في هؤلاء، وفيهم الفقهاءُ والشعراء والخطباءُ، مثل الكميت بن زيدٍ، وعبد الحميد الكاتب، وقيس بن سعدٍ، وعطاء بن أبي رباحٍ، ومثل عبدالكريم أبي أُمَيَّةَ، وحُسين المعلّم، وأبي سعيدٍ المعلِّم.

ومن المعلِّمين الضّحّاك بن مزاحم، وأمّا مَعْبدٌ الجهنيّ، وعامرٌ الشَّعبيّ، فكانا يعلِّمان أولاد عبدالملك بن مروان، وكان معبدٌ يعلِّم سعيداً (وهو ابن عبدالملك بن مروان) ومنهم أبو سعيدٍ المؤدِّب، وهو غير أبي سعيدٍ المعلّم، وكان يحدِّثُ عن هشام بن عروة، وغيرُهم، ومنهم عبد الصَّمَدِ بن عبد الأعلى، وكان معلِّم ولد

(١) السابق ٣ / ٣٥.

عتبة بن أبي سفيانَ، وكان إسماعيل بن عليّ ألزم بعض بنيه عبد الله بن المقفَع ليعلِّمه، وكان أبو بكرٍ عبد الله بن كيسان معلِّماً، ومنهم محمّد بن السَّكَن.

وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم، ولا أحسنَ بياناً من أبي الوزير، وأبي عدنان المعلِّمين، وحالهما من أوّل ما أذكر من أيّام الصِّبا، وقد قال الناسُ في أبي البيداءِ، وفي أبي عبد الله الكاتب، وفي الحجّاج بن يوسُفَ وأبيه ما قالوا، وقد أنشدوا مع هذا الخبر شاهداً من الشعر على أنّ الحجاج وأباه كانا معلِّمين بالطائف»[1].

ويظهر من صنيع ابن قتيبة عدم التمييز بين المعلِّمين والمؤدِّبين[2].

وكانوا يتطلّبون في المؤدِّبِ بيانَه، وأدبَه، وقدرتَه على الحديث، ومنطقَه السليمَ، وكانوا يعدّون هذا أهمَّ مقوِّماته، وأقوى أسباب التأديب: «قال ابن عتاب: يكون الرجلُ نحوياً عروضياً [وقَسَّاماً فرضياً] حَسَن الكتاب، جيِّد الخطِّ، حافظاً للقرآن، راوية للشعر، وهو راضٍ بأن يعلِّم أولادنا بستِّين درهماً، ولو أنّ رجلاً كان حَسَن البيان، حَسَن التخريج للمعاني، ليس عنده غير ذلك لم يرضَ بألفِ درهم؛ لأنّ النحويَّ ليس عنده إمتاعٌ، كالنّجّار الذي يدعى ليعلِّق باباً، فلو كان أحذق النّاسِ

(١) الجاحظ / البيان والتبيين ١ / ٢٥٠ - ٢٥٢ وهو يشير إلى قول مالك بن الرّيب:

فماذا عسى الحجّاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا حفير زيادِ

فلولا بنو مروان كان ابنُ يوسفٍ ... كما كان عبداً من عبيد إياد

أمانٌ هو العبد المقرُّ بذلّةٍ ... يراوح غلمان القرى ويغادي

وقال آخر فيه:

أينسى كُلَيب زمانَ الهُزا ... لِ وتعليمَ سورة الكوثَرِ

رغيفٌ له فلكةٌ ما تُرى ... وآخر كالقمر الأزهَرِ

يريد: خبز المعلم مختلف. ابن قتيبة / المعارف ٥٤٨ وكُلَيبٌ: اسم الحجّاج.

(٢) انظر: ابن قتيبة / المعارف ٥٤٧ - ٥٤٨.

ثمّ فرغَ من تعليق ذلك الباب، قيل له: انصرف، وصاحب الإمتاع يراد في الحالات كلها»[1].

وسنورد فيما يأتي الصّفاتِ التي يتطلّبونها في المؤدِّب ثم نتبعها إيرادَ شيءٍ من أخبارهم.

ومن أهمها كمال الخلقة وجمالها، لما في ذلك من أثر على المتأدِّبِ أو المؤدّب، وفي خبر تأديب الكسائيّ أولادَ الرشيد أنّه «لما أصابه الوَضَحُ في وجهه وبدنه كره الرشيد ملازمتَه أولاده، فأمر أن يرتاد لهم من ينوبُ عنه ممّن يرتضي به، وقال: إنّك كبِرْتَ، ونحن نحبُّ أن نُودِّعك، ولسنا نقطع عنك جاريَك، فجعل يدافع بذلك، ويتوقّى أن يأتيَهم برجلٍ فيغلب على موضعه...»[2] على الرغم من أنّ الكسائيَّ «كان أثيراً عند الرشيد، حتّى أخرجه من طبقة المؤدِّبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين»[3].

ومنها الفِطنة والكياسة، والبراءة من الحمق والنّواكة، وحُسْن التصرُّفِ في القول، ومعرفة مواضع الكلام، وما يليق ومالا يليق، ومراعاة المقاماتِ في الخطاب، لما لذلك من أثر على المؤدَّب «كان عند المهديِّ مُؤَدِّبُ الرشيد، فدعاه المهديُّ يوماً وهو يستاك، فقال له: كيف الأمر مِن السِّواك؟ قال: استَكْ يا أميرَ المؤمنين، فقال المهديُّ: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون" ثمّ قال: التمسوا لنا من هُوَ أفْهَمُ من ذا. فقالوا: رجلٌ يقالُ له: عليّ بن حمزة الكِسائيّ من أهل الكوفة، قدِم من البادية قريباً، فكتب بإزعاجه من الكوفة، فساعةَ دخَلَ عليه قال: يا عليُّ بن حمزةَ، قال: لبَّيْكَ يا أميرَ المؤمنين. قال: كيف تأمر من السِّواك قال: سُكْ يا أمير

(١) الجاحظ / البيان والتبيين ١/ ٤٠٣، وياقوت / معجم الأدباء ١ / ٩٥-٩٦.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٧.

(٣) السابق ٣ / ١٦٨.

المؤمنين. قال: أَحْسَنْتَ وأصبْتَ، وأمر له بعشرة آلاف درهم»[1].

و «يروى أنّ المأمون سأل اليزيديّ[2] عن شيءٍ، فقال: لا، وجعلني الله فداءك، يا أمير المؤمنين! فقال: لله دَرُّكَ! ما وُضِعَتْ واوٌ موضعاً قطُّ في لفظٍ أحسن منها في لفظٍ مثل هذا، ووصَلَه بعطيَّةٍ سنيَّةٍ»[3]. ومن ذلك ما يحكى عن محمد بن عمران، أبي جعفرٍ الكوفيِّ النّحويِّ، وكان يؤدِّبُ عبدالله بن المعتزّ، وكان نحوياً، عارفاً بالقراءة والعربيّة، بعيدَ النَّظَر في البوادرِ، رُوِيَ أنّه حين كان يُؤَدِّبُ ابن المعتزِّ أقرأه يوماً سورة "والنّازعات" وقال له: إذا سألك أميرُ المؤمنين في أيِّ سورةٍ أنت فقل له: أنا في السورة الّتي تلي سورة "عبس" فلمّا سأله أبوه المعتزّ عن ذلك، قال له: أنا في السورة الّتي تلي سورة "عبس" فقال له: من علَّمك هذا؟ فقال: مُؤَدِّبي أبو جعفرٍ، فأمر له بعشرة آلافِ درهمٍ، وكان أبو جعفرٍ عالماً بالحديث والأثر»[4].

و «جاء أبو محمد اليزيديّ إلى باب المأمون فعرَّف خبره، فقال مستبشراً بقدومه: لك البشرى، ثم أذن له، فدخل عليه، فضحك إليه حين رآه، ثم قال: أتذكر وأنت تبادر إلى محو لوحي، قال: نعم، يا سيدي، فوصله بخمسمائة ألف درهم، ثم اتخذ الرشيد الحسن اللؤلؤي بعد أبي محمد اليزيديّ على المأمون، فبينما هو يطارحه شيئاً من الفقه، إذ نعس المأمون فقال له اللؤلؤي: نمت، أيّها الأمير، فقال المأمون: سوقيّ وربِّ الكعبة، خذوا بيده، فبلغ الرشيد ما صنع، فقال متمثّلاً:

وهل ينبت الخطّيَّ إلا وشيجُه

وتغرس إلاّ في منابتها النخل»[5]

---

(١) السابق ١٣/ ١٧٤.

(٢) هو أبو محمد يحيى بن المبارك.

(٣) ابن الأنباريّ / نزهة الألبّاء ٨٣.

(٤) ياقوت / معجم الأدباء ١٨/ ٢٧٢.

(٥) البيهقي / المحاسن والمساوئ ٢ / ٢١٥.

وكانوا ينشدون في المؤدِّب التكوين العلميّ الخاصَّ القائم على تنوُّعِ المعارفِ، والقُدْرةِ على التصرُّف فيها، والإمتاع، ولا ينشدون العُمْق المعرفي بقدر ما ينشدون طريقة التأديب، وينظر في هذا ما قدَّمناه آنفاً[1]، وما سيأتي[2]، إن شاء الله، ونذكِّر بحوارٍ جرى بين الأحمر والكسائيّ حين عزم الثاني بعد إلحاح الخليفة على استخلاف الأوّل في تأديب أولاد الرّشيد، فقال له: «هل فيك خير؟ قال: نعم، قال: قد عزمْتُ أن أستخلِفَك على أولاد الرشيد، فقال الأحمر: لعلِّي لا أفي بما يحتاجون إليه، فقال الكسائيّ: إنّما يحتاجونَ في كُلِّ يومٍ إلى مسألتين في النحو، وثنتين من معاني الشعر، وأحرفٍ من اللُّغة، وأنا أُلقِّنُكَ في كُلِّ يومٍ قبل أن تأتيهم ذلك، فتحفظه، وتعلِّمهم، فقال: نعم»[3].

كما كانوا ينشدون قدرةَ المؤدِّب على استنطاق القدرات المخبوءة لدى المؤدَّبين، حتّى تغدو خصالاً فيهم، من خطابةٍ، وشعر، وكتابة، وخط، وأدب في الحديث، وحسن تأتٍ في التصرّفات، ولعلّ فيما أوردناه من أخبار ما يُوضِّح ويجلّي هذا الجانب.

ولم يغفلوا عن التربية السلوكيّة والأخلاقيّة؛ إذ كانوا يطلبون في المؤدّب أن يكون قدوةً في نفسه، يصدِّق قولَه فعلُه، كما في كلمة «عتبة بن أبي سفيان لعبدالصمد مؤدِّب ولده: ليكن أوّل ما تبدأ به من إصلاحك بنيَّ إصلاحك نَفْسَكَ؛ فإنّ أعيُنَهُمْ معقودة بعينك، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحْتَ»[4]. كما كانوا يطلبون تربيتهم بالقدوة من العظماء بذكر

(١) ص ٨٦-٨٩.

(٢) ص ٩٥ فما بعدها.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٧.

(٤) الجاحظ / البيان والتبيين ٢ / ٧٣.

أخبارهم، وقصصٌ سيرهم، والوقوف على أخلاقهم، كما في قول عتبة ـ أيضاً ـ «وعلِّمهم سِيَرَ الحكماء، وأخلاق الأدباء»[1]. كما وُجِّه المؤدِّبون إلى تربية مُؤَدَّبيهم على الجدِّ، والبعد عن اللهو، والاشتغال بالملذّات، بالأساليب التربوية الناجعة التي تؤثر في القلب، وتدعوه إلى القبول، كما في كلمة عتبة ـ أيضاً ـ «وجنِّبهم محادثةَ النساء، وتهدَّدهم بي، وأدّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب المداوي الذي لا يعجَلُ بالدّواء حتى يعرف الدّاء، ولا تتكل على عذري، فإنّي قد اتّكلت على كفايتك، وزدْ في تأديبهم أزدْكَ في برِّي، إن شاء الله»[2]. وهذه كلمة تربوية جامعة لسنا بصدد درسها وتحليلها، حتى نقف عندها.

ويحسن بنا أن نورد خبراً في التربية السُّلوكية، هو خبر ابن ناصح، قال: «لمّا أراد المتوكّل أن يعقد للمعتزّ ولاية العهْدِ حططته عن مرتبته قليلاً، وأخرْتُ غداءه عن وقته، فلمّا كان وقت الانصراف قلْتُ للخادم: احمله، فضربْته من غير ذنبٍ، فكتب بذلك إلى المتوكّل، فأنا في الطريق منصرفاً؛ إذْ لحقني صاحبُ رسالة، فقال: أمير المؤمنين يدعوك، فدخلْتُ على المتوكّل، وهو جالسٌ على كرسيّ، والغضبُ يبينُ في وجهه، والفتح قائم بين يديْهِ مُتّكئاً على السَّيف، فقال: ما هذا الذي فعلْته، يا أبا عبد الله؟ قُلْتُ: أقولُ يا أمير المؤمنين؟ فقال: قل؛ إنّما سألْتُك لتقولَ. قلْتُ: بلغني ما عزم عليه أميرُ المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ فدعوت وليَّ عهده، وحططت منزلته، ليعرف هذا المقدار، فلا يعجل بزوال نعمة أحدٍ، وأخّرتُ غداءه، ليعرف هذا المقدار من الجوع، فإذا شُكِيَ إليه الجوعُ عرفَ ذلك، وضربْتُه من غير ذنبٍ، ليعرف مقدار الظلم، فلا يعجل على أحد، قال: فقال: أحسنْت، وأمر لي بعشرةِ آلافِ درهمٍ، ثم لحقني رسولُ قبيحةَ بعشرةِ آلاف

(١) السابق ٢ / ٧٣.

(٢) السابق ٢ / ٧٤.

أخرى، فانصرفت بعشرين.

وحدَّث عبيد بن ناصح فقال: قال لي المعتزّ يوماً: يا مؤدِّبي تصلّي جالساً، وتضربني قائماً؟ فقلْتُ له: وضربُك من الفروض، ولا أؤدِّي فرضي إلاّ قائماً»(١).

وكانوا ينشدون في المؤدِّب التدرُّج في التأديب، والتعليم، والتلقين بالأهمّ فالأهمّ، بطريقة لا تؤدِّي إلى الإملال، ولا تجنح إلى الإقلال، فيتدرج المؤدِّب بمن يؤدِّب من علمٍ إلى علم، فلا ينتقل به إلى علمٍ أو باب من العلم حتّى يتقن ما شرع فيه مع مراعاة قدرة المؤدَّب واستعداده، واختيار ماله من العلم والأدب أثر في سلوكه وتربيته، وتعهّده خلال الدرس بالذكرى النافعة، والموعظة الحسنة، والحكمة الهادية، يظهر هذا في وصية عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدِّب ولده، حين قال له: «... علّمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثمّ روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفَه، ولا تخرجهم من علمٍ إلى غيره حتّى يحكموه، فإنّ ازدحام الكلام في السَّمع مضلّةٌ للفهم»(٢).

وقد أوصى الرشيد الأحمر حين عهد إليه بتربية ولده فقال: «إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجةَ نفسه، وثمرةَ قلبه، وصيَّر يدك عليه مبسوطة، ومقالتك فيه مصدَّقةٌ، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وَضَعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآنَ، وعلِّمه الآثار والأخبار والسُّنن، وروِّه الأشعار، وبصّره مواقع الكلام، ومُرْه، بالرزانة في مجلسه، والاقتصاد في نظره وسمعه، فلا تمرّنّ بك ساعةٌ إلاّ وأنت مغتنمٌ فيها فائدة تفيده إيّاها، وكلمة نافعةً يعيها ويحفظها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه وتملّه، ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه،

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٢٣٠-٢٣١.

(٢) الجاحظ / البيان والتبيين ٢ / ٧٤.

وقوِّمه بالتقريب والملاينة، فإنْ أبى فالشِّدَّة»[1].

وكانوا يسألون عن خُلُقِ المؤدِّب ودينه، ولهذا اختار الرشيد لتأديب ولده الأمين قطرباً لستره وعفافه، ونفى حمّاداً واستبعده، ثم إن حمّاد عجرد، فَعَل ما كان سبباً لإبعاد قطرب عن تأديب الأمين، في قصّةٍ ليس هذا مقام ذكرها[2].

* * *

التأديب ـ كما أسلفنا ـ صنعة من الصّنائع، صار لها نظامٌ خاصٌّ، واختصَّ بها أفرادٌ بل أُسَرٌ، جعلت التأديب صناعتها، وكان اختيار المؤدِّبين يتم بطرقٍ، منها طريق التزكية والترشيح، كما كان من أبي سعيدٍ الضرير الّذي «كان يختار المؤدِّبين لأولاد قوّاد عبد الله بن طاهر، ويبيِّن مقدار أرزاقهم، ويطوف عليهم، ويتعهَّد من بين يديه من أولئك الصبيان»[3]. وكما حصل لعليّ بن الحسن الأحمر صاحب الكسائي (ت ١٩٤هـ) فإنّ الكسائيّ هو الّذي رشَّحه للتأديب، و «كان رجلاً من الجند من رجال النّوبة على باب الرشيد، وكان يحبُّ علم العربيّة، ولا يقدر على مجالس الكسائيّ إلاّ في أيّامٍ غير نوبته، وكان يرصد مصير الكسائيّ إلى الرّشيد، ويعرضُ له في طريقه كُلَّ يومٍ، فإذا أقبل تلقّاه وأخذ بركابه، ثمّ أخذ بيده وماشاه إلى أن يبلغ السِّتْر، وساءله في طريقه عن المسألة بعد المسألة، فإذا دخل الكسائيّ رجع إلى مكانه، فإذا خرج الكسائيُّ من الدار تلقّاه من الستر، وأخذ بيده وماشاه يسائله حتّى يركَبَ، ويجاوز المضاربَ، ثم ينصرف إلى البابِ، فلم يزل كذلك يتعلّم المسألةَ بعد المسألة حتّى قويَ وتمكّن، وكان فطناً حريصاً، فلمّا أصاب الكسائيّ الوضح، وألحّوا عليه في أن يختار لهم مؤدِّباً آخر من أصحابه، اختار

(١) الجاحظ / البيان والتبيين ٢ / ٧٣.

(٢) البيهقي / المحاسن والمساوئ ٢ / ٢١٣.

(٣) السابق ٢ / ٣١٤.

لهم الأحمر، فقالوا: إنّما اخترْتَ لنا رجلاً من رجال النّوبة، ولم تأتِ بأحدٍ متقدِّمٍ في العلم، فقال: ما أعرف أحداً في أصحابي مثله في الفهم والصيانة، ولست أرضى لكم غيره»(١).

ومثل هذه القصّة ما يحكى في ترجمة إبراهيم بن السّريّ الزّجّاج (ت ٣١١ هـ)؛ إذ جاء المبرِّدَ كتابُ بعض بني مارمة من الصراة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم، فقلتُ (القائل الزّجّاج): أسمني لهم فأسماني، فخرجْتُ أعلِّمهم، وأنْفِذُ إليه في كل شهرٍ ثلاثين درهماً، وأتفقَّدُه بعد ذلك بما أقدر عليه، ومَضت مُدَّة على ذلك، فطلب عبيد الله بن سليمان مُؤَدِّباً لابنه القاسم، فقال له: لا أعرفُ لك إلاّ رجلاً زجّاجاً بالصّراة مع بني مارمة، قال: فكتب إليهم عبيد الله، فاستنزلهم عنّي، فأحضروني، وأسلم القاسم إليَّ، فكان ذلك سببَ غناي. في قصّةٍ طويلة»(٢).

ومثله ما حكاه الأخفش الصغير علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ) قال: «استهدى المدبِّر المبرّد جليساً يجمع إلى تأديب ولده الاستمتاع بإيناسِه ومفاكهته، فندبني إليه، وكتب معي: قد أنفذت إليك ـ أعزّك الله ـ فلاناً، وجملة أمره:

إذا زُرْتُ الملوكَ فإنّ حَسْبي

شفيعاً عندهم أنْ يخبُروني

وقدم الأخفش مصر سنة سبع وثمانين ومائتين، وخرج منها سنة ثلاثمائة إلى حلب مع عليّ بن أحمد بن بسطام صاحب الخراج، فلم يَعُدْ إلى مصر»(٣).

---

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٢٢.

(٢) السابق ٣ / ٦ - ٩ وانظر بقيّة القصة هناك.

(٣) انظر القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٦٠.

ومثله ما كان من ثعلبٍ أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) حين أرسل إليه الوزير عبيدالله بن سليمان ليختلف إلى القاسم، فأبى، واعتذر بالشّيخوخة والضّعف، فقال له: أنفذ إليَّ من ترتضيه من أصحابك، فأنفذ إليه هارون الضرير، من أعيان أصحاب ثعلب، وكان الوزير فيما يظهر قد بعث إلى أبي العبَّاسِ محمد بن يزيد المبرّد (ت ٢٨٥هـ) ليبعث إليه من يصلح لتأديب ولده، كما في أخبارٍ أخرى، وفي بقيّةِ الخبر «فاستحضر الوزير عبيد الله أبا إسحاقَ الزَّجَّاجَ، وجمع بينه وبين هارون، فسأله الزّجَّاج: كيف تقول: ضربت زيداً ضرباً، فقال: ضربْتُ زيداً ضَرْباً، فقال: كيف تكني عن زيدٍ والضرب؟ فأفحم ولم يُجِبْ، وحار في يده، وانقطع انقطاعاً قبيحاً، فصرفه الوزير، واختار الزَّجَّاج لتأديب ولده، فكان ذلك سببَ منيَّةِ هارون، وما كان هارون ممّن يذهَبُ عليه هذا، فإنّ جواب المسألة ضربته إيَّاه»[1].

ففي هذه القصّة يلاحظ أنّ الوزير طلب الترشيح من غير ما جهة، وعمل اختباراً، فاختار الأفضل في نظره، وهي طريقةٌ سلكها المتوكّل حين أمر باتّخاذ المؤدِّبين لولديه المنتصر والمعتزّ، وأسْند ذلك إلى إيتاخَ، فأمر إيتاخُ كاتبه بتولّي ذلك، فبعث إلى الأحمر، والطوال، وابن قادم، وأحمد بن عبيد، وغيرهم من الأدباء، فأحضرهم مجلسَهُ، فجاء أحمد بن عبيدٍ، فقعد في آخر النّاسِ، فقال له من قَرُب منه: لو ارتفعْتَ، فقال: حيث انتهى بي المجلس، فلمّا اجتمعوا قال لهم الكاتب: لو تذاكرتم وقفنا على موضِعكم من العلم، فألقى إليهم بيت أوسِ بن غلفاءَ، وهو:

ذريني إنّما خطئي وصوبي

عليّ وإنّ ما أنفقْتُ مالُ

وقال: ارتفع "مالٌ" بماذا؟ فقيل: ارتفع "مال" بـ "ما" إذْ كانتْ موضِعَ

(١) ياقوت / معجم الأدباء ١٣/٢٥٦.

الّذي، ثمّ سكتوا، فقال أحمد بن عبيد: هذا الإعراب، فما المعنى؟ فأحجم القوم، فقيل له: ما المعنى عندك؟ فقال: أراد ما لومُكِ إيّايَ، إنّما أنفقتُ مالاً، ولم أنفق عِرضاً، والمال لا ألامُ عليه في إنفاقه.

فجاء خادمٌ من صدر المجلس، فأخذ بيده، حتّى تخطّى به إلى أعلى المجلس، وقال: ليس هذا موضعَك، فقال: «لأن أكون في مجلسٍ أرفع منه إلى أعلاه أحبُّ إليّ من أن أكون في مجلسٍ أرتفع منه إلى آخره، ثمّ أحطّ عنه، واختير وآخر معه، وهو ابن قادم»(١).

ففي هذه القصّة عُيِّنَ الأشخاص المرشّحون للتأديب، ثُمّ عُمِلَتْ لهم مفاضلة بحوارٍ علميّ، جمع بين النحو صناعةً، والنحو ذوقاً، فوقع الاختيار على صاحب الذوقِ الّذي يتناولُ النّحو بحسٍّ لُغَويٍّ، وذوقٍ أدبيّ.

وكانت مجالس امتحان المرشحين للتأديب مشهودةً، يحضرها الأعيان، وأهل الفضل، والعلم، ليمتحن في شهودهم المُؤَدِّب أو من سيكون مُؤَدِّباً، ويبلى علمه، ومنطقه، وحُسْنُ تصرُّفه، ومن ذلك ما أوردته كتب التراجم في ترجمة أبي الحسنِ الورّاقِ محمد بن هبة الله (ت ٤٧٠ هـ) إذ «استدعاه القائم بأمر الله ليعلِّم أولاده، وكان ضريراً، فلمّا بلغ إلى الموضع الذي فيه أمير المؤمنين، قال له الخادمُ: وصلْت، فقبِّل الأرضَ، فقال الشيخ: السلام عليكم ورحمة الله، وجلس، فقال له القائم: وعليك السلام يا أبا الحسن، ادْنُ منّي، فما زال يدنيه حتّى مَسَّ بركبته ركْبَةَ أمير المؤمنين القائم، فأوّل ما سأل عن العروض، فقال:

ألا يا صبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجدِ

[لقد زادني مَسْراك وجداً على وَجْدِ]

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٩ / ٢٦١.

فشرع أبو الحسن يشرحه، وأنّه من الطويل على ثمانية أجزاءٍ (فعولن مفاعيلن) وأنّه أتى به على الأصل، ولم يدخلْه القبضُ، وهو حذف الياء من (مفاعيلن) ثمّ سأله عن عوارض العروض، فأجاب، ثُمّ عن مسائل نحويّة، فأجابَ، فلمّا خرج الشيخ من عند القائم جاءه محمد الوكيل، فقال: مولانا أمير المؤمنين، يقول: هذا هو البحر»[1].

وهذا اختبار يسير ـ فيما يظهر ـ لم يتجاوز مسائل دوّارةً في كتب العلم، لكن لا غنى للطالب والمتأدِّب عنها.

ولعلّه لا يغيب عن الذهن ما مرّ معنا قبل قليل من خبر أبي عصيدة أحمد بن عبيد بن ناصح حين دُعي وغيره لتأديب ولد المتوكّل[2]، فاختير هو وابن قادم.

بل كانت الاختبارات تُجرى على من يمارسون مِهْنَة التأديب الفينة بعد الفينة، كالّذي طلبه الواثق من المازني، قال: إن ههنا أقواماً يختلفون إلى أولادنا فامتحنهم، فمن كان عالماً ينتفع به ألزمناه إيّاه، ومن كان بغير هذه الصِّفة قطعناهم عنه، قال: فامتحنتهم، فما وجدت فيهم طائلاً، وحَذِروا من ناحيتي، فقلْتُ: لا بأس على أحدٍ منكم، فلمّا رجعْتُ إليه، قال: كيف رأيتهم؟ فقلت: يفضُل بعضهم بعضاً في علوم يفضل الباقون في غيرهم، وكُلٌّ يحتاجُ إليه، فقال الواثق... القصة»[3]. وهي قِصّة تمثل الواقعية في معالجة مشكلة ضعف المؤدّبين.

ويقرب من هذا ما قاله المازني: قلت لابن قادمٍ أو لابن سعدان لمّا كابرني: كيف تقولُ: نفقتك ديناراً أصلح من درهم؟ فقال: "ديناراً" بالرفع، قال: قلتُ:

---

(١) ابن الأنباريّ / نزهة الألبّاء ٣٦٧-٣٦٨ والشعر لابن الدمينة / ديوانه ص ٨٥ من تحقيق أحمد راتب النفاخ، دار العروبة، القاهرة.

(٢) تنظر القصة كاملة عند ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٢٢٨ - ٢٣٠.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٢٢.

فكيف تقولُ: ضَرَبُك زيداً خير لك، فنصب زيداً، فقلْتُ له: فرّق بينهما، فانقطع، وكان ذلك عند الواثق، وحضر ابن السكّيت، فقال له الواثق: سَلْهُ عن مسألة، فقلت له: ما وَزْنُ "نكتل" من الفعل؟ فقال: "نفعل" فقال الواثق: غَلِطْتَ، ثم قال لي: فسِّرْه، فقلت: "نكتل" تقديره "نفتعل" "نَكْتَيِل" فانقلبت الياء ألفاً لفتحة ما قبلها، فصار لفظه "نكتال" فأسكنت اللام للجزم؛ لأنّه جوابُ الأمر، فحذفت الألفُ لالتقاء الساكنين، فقال الواثق: هذا الجواب، لا جوابُك يا يعقوبُ، فلمّا خرجْنا قال لي يعقوبُ: ما حملَك على هذا وبيني وبينك من المودّة الخالصة؟ فقلت: والله ما قصدي تخطئتك، ولم أظنَّ أنّه يعزُب عنك ذلك»[1].

وكانت الاختبارات شبحاً يطارد المؤدِّبين، وقريناً يلازمهم ماداموا على صناعتهم قائمين، فقد «كان أبو سعيد الضرير أحمد بن أبي خالدٍ يختار المؤدِّبين لأولاد قُوّاد عبد الله بن طاهر، ويبيِّن مقدار أرزاقهم، ويطوف عليهم، ويتعهَّد من بين أيديهم من أولئك الصبيان، فاستقبله يوماً في ميدان الحسين بعض أولئك المؤدِّبين، فقال: يا فلانُ، من أين وَجْهُك؟ قال: من شاذِياخ، قال: زد فيه ألفاً ولاماً، فقال: من شاذياخال، فقال أبو سعيدٍ: اللَّهم غَفْراً، زدْهما في أوّل الحرفِ، ويلك، فقال: ألفٌ، لامٌ، شاذياخ، فقال: صُمَّ صَداك، كم رزقُك؟ قال: سبعين دِرْهماً، فقال: يصرف، ويبدّل به غيره، وهو صاغرٌ صَدٍ»[2].

ومن طريف الامتحان والمتابعة ما جرى لمحمّد بن عبد الواحد، غلام ثعلبٍ المطرِّزيّ أبي عمر الزَّاهد (ت ٣٤٥ هـ) إذْ «كان يُؤَدِّبُ ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسُفَ، فأملى على الغلامِ نحواً من ثلاثينَ مسألةً في النّحو، وذكر غريبها، وختمها ببيتين من الشعر، وحضر أبو بكر بن دريدٍ، وأبو بكر بن

(١) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويّين ٨٨ - ٨٩.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٢٢ - ٢٣.

الأنباريِّ، وأبو بكرِ بن مِقْسَم العطّار المقرئ عند القاضي أبي عمر، فعرض عليهم تلك المسائل، فما عرفوا فيها شيئاً، وأنكروا الشعر، فقال لهم القاضي: ما تقولون فيها؟ فقال ابن الأنباريِّ: أنا مشغولٌ بتصنيف مشكل القرآن، ولستُ أقولُ شيئاً، وقال ابن مِقْسَم مثلَ ذلك، واعتذر باشتغاله بالقراءات، وقال ابن دُريد: هذه المسائل من موضوعاتِ أبي عُمر الزَّاهد، ولا أصل لشيءٍ منها في اللغة، وانصرفوا، فبلغ ذلك أبا عُمَرَ، فاجتمع بالقاضي، وسأله إحضار دواوين جماعةٍ من قُدماءِ الشعراءِ عيَّنهم، ففتح القاضي خزائنه، وأخرج تلك الدواوين، فلم يزل أبو عُمر الزَّاهد يعمد إلى كُلِّ مسألةٍ منها، ويخرج لها شاهداً من تلك الدواوين، ويعرضه على القاضي، حتّى استوفى جميع المسائل، ثمَّ قال: وهذان البيتان أنشدهما ثعلبٌ بحضرةِ القاضي، وكتبهما القاضي بخطِّه على ظهر الكتاب، كما ذكر أبو عمر، وانتهت القِصَّةُ إلى ابن دُرَيْد، فلم يذكر أبا عمر الزَّاهد بلفظةٍ إلى أن ماتَ، وقال رئيس الرّؤساء أيضاً: رأيتُ أشياءَ كثيرةً ممّا أنكرَ على أبي عمر، ونُسب فيها إلى الكذب، فوجدتها مُدوَّنةً في كتب اللغة، وخاصّةً في الغريب المصنّف»[1].

* * *

ولم تكن صنعة التأديب ـ كما يظن ـ بالصناعة المحمودة، أو المرغوب فيها عند بعض الناسِ، خاصّة من يرون لأنفسهم مكانةً فوق النّاس من العلية والكبراء، وأصحاب الجاه، والشرف الدنيويّ، فقد «مَرَّ رجلٌ من قريشٍ من ولد عتّاب بن أسيدٍ وهو يقرأ كتاب سيبويه، فقال: أفٌّ لكم، علم المؤدِّبين، وهمّة المحتاجين»[2]؛ «وكان عوانة بن الحكم يقول لأخٍ له ـ يقال له: عياضٌ ـ نحويّ: لا تعَمَّقْ في النحو، فإنّه لم يتعمَّقْ أحدٌ إلاّ صار معلِّماً، قال: فصار عياضٌ بعد ذلك معلِّماً

(١) السابق ١٨/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) الجاحظ / البيان والتبيين ١ / ٤٠٢-٤٠٣.

بإفريقية لولدِ المعلَّى»[1]. وكان بعض المنتسبين إلى العلم المحسوبين على العلماء يتهكّم بالمؤدِّبين، ويتطرَّف عليهم، ويتنكر لهم، ذكروا ذلك عن أبي عبدالله محمد ابن يحيى بن زكريّا القلفاط الأندلسي. حتى جرت له قِصّةٌ مع صالح بن معافى[2].

* * *

ولم تكن صناعة التأديب مقبولة أو مرضيةً عند أهل العلم بإطلاق، فهناك من العلماء من بدر منه ما يدلّ على عدم رضاه، وإن مارسها، ومن هؤلاء أحمد بن عَلَويّة الأصبهاني الكرماني (ت بعد سنة ٣٢٠ هـ) «وكان صاحب لغةٍ يتعاطى التأديبَ، ويقول الشعر الجيد، وكان من أصحاب أبي عليّ لُغْدَةَ، ثمّ رفض صناعة التأديب، وصار في ندماء أحمد بن عبدالعزيز، ودُلَف بن أبي دُلَف العجليّ»[3].

وكان محمد بن حبيبَ، وهو من هو في علمه (ت ٥٤٢ هـ) مؤدِّباً، ويظهر ممّا حكاه عنه أبو رؤْبة عدم رضاه عن هذه الصّناعة، قال أبو رُؤْبةَ: عبرت إلى ابن حبيبَ في مكتبه، وكان يعلِّم ولدَ العبّاسِ في شكوكٍ شككت فيها، ويروى عنه أنّه قال: إذا قُلْتَ للرَّجُلِ ما صناعتُك؟ فقال معلّم، فاصفَعْ، وأنشد ابن حبيب:

إنّ المعلِّم لا يزال مُعلِّماً
لو كان علّم آدمَ الأسماءَ
من علَّم الصِّبيانَ صبَّوْا عقْلَه
حتّى بني الخلفاء والخلفاءَ»[4].

---

(١) ياقوت / معجم الأدباء ١٦/ ١٣٩.

(٢) الزبيدي / طبقات النحويين واللّغويين ص ٢٨٠. والقَلفاط (عاش في النصف الأوّل من القرن الرابع) وصالح بن معافى من أهل العربية ورواية الشعر بالأندلس من الطبقة الخامسة، عاش في النصف الأوّل من القرن الرابع.
وانظر الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ص ٢٧٨.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ٤ / ٧٢.

(٤) السابق ١٨/ ١١٢.

وأمّا ثعلب فقد أرسل إليه الوزير عبيد الله بن سليمان ليختلف إلى ولده القاسم، فأبى، واعتذر بالشيخوخة والضعف[1]. وقد تقدّم.

وهناك من امتنع من التأديب مطلقاً، ولم يرضَ لنفسه هذه الصنعة إكراماً لها، أو ترفّعاً عن أن يدنّس مقصده بشيءٍ من الدنيا، وهؤلاء في الغالب من زُهّاد العلماء، أصحاب السُّنّة والورع، ومنهم الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) فقد وجّه إليه سليمان بن عليّ والي الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل لرسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كُلْ، فما عندي غيره، وما دُمْتُ أجده فلا حاجة بي إلى سليمان، فقال الرسول: فما أبلِّغُه عنك؟ فقال:

أبلغْ سليمان أنّي عنه في سعةٍ
وفي غنى غير أنّي لست ذا مالِ
سخّى بنفسي أنّى لا أرى أحداً
يموتُ هزلاً، ولا يبقى على حالِ
والفقر في النَّفس لا في المال نعرفُه
ومثل ذاك الغنى في النّفس لا المالِ
فالرزقُ عن قدرٍ لا العجزُ ينقُصُه
ولا يزيدُك فيه حولُ مُحْتـــالِ»[2].

والخليل هذا الزّاهد هو الّذي تأثّل طُلاّبه بعلمه الأموالَ الطّائلة، وجالسوا الملوك والأمراءَ به، وأكلوا به طيّبات الدنيا، وصنعوا منه الموائد الفاخرة، وبه لبسوا ليّن الثياب، واتخذوا الرياش، وابتنَوُا القصور العامرة، واتّخذوا الضياع الآمرة، حتّى

(١) السابق ١٣/ ٢٥٦ وانظر ص ٩٣-٩٤ من هذا العمل.

(٢) ابن الأنباري / نزهة الألبّاء ص ٤٧، وياقوت / معجم الأدباء ١١/ ٧٥.

صدقَ فيه قولُ القائل، وهو النّضر بن شميل: «أُكِلَتِ الدّنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه، وهو في خُصٍّ لا يشعر به أحد»(١).

وممّن ذَمَّ أو مقت صناعة التأديب أبو عثمان بكر المازنى (ت ٢٤٧هـ)؛ إذْ طلبه الواثق لامتحانِ مُؤَدِّبي أولاده، ليثبت من كان عالماً ينتفع به، ويقطع خلافه، فامتحنهم، وخَلُص من حرجٍ كاد يقع فيه حين قال له الواثق: «إنّي خاطبت منهم رجلاً فكان في نهاية الجهل في خطابه ونظره، فقلت: يا أمير المؤمنين أكثر من تقدَّم فهم بهذه الصفة، وقد أنشدت فيهم:

إنّ المعلّم لا يزالُ مُضعَّفاً

ولو ابتنى فوق السماء سماءَ

من علّم الصبيان أضنوا عقله

ممّا يلاقي بكرة وعِشاءَ

ثم طلب منه البقاء في بغداد وملازمته، فاعتذر بأهله وبطبعه الّذي يأنَسُ بالوحدة»(٢).

وأنت ترى أنّ كثيراً من أهل العلم يترفَّع بعلمه عن هذه الصناعةِ التي يرون أنّها تحطُّ من شأنهم؛ لأنَّ العلم يؤتى ولا يأتي، وفي بيته يُؤْتى الحكم، ولظنّهم أنّهم يضعون العلم في غير موضعه، كالّذي يزرع في أرضٍ سبخةٍ، ولأنّ بعضهم يمنعه زهده من تطلّب مثل هذا الأمر، ولأنّ بعضهم يخشى غائلة قرب السلطان وصاحب الأمر، كما كره بعضهم الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ، ولأنّ بعضهم لم يأنس من نفسه القدرة على القيام بهذا الأمر، على حين كانت فِئاتٌ من أهل العلم والأدب تتسابقُ إلى هذا العمل طمعاً في المال والجاه والشرفِ، أو رغبةً في نشر العلم والأدب، والله أعلم.

---

(١) ابن الأنباري / نزهة الألبّاء ص ٤٨.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٧ / ١١٥-١١٧.

الأساس في علاقة المؤدَّب بمؤدِّبه علاقة بنـوَّةٍ وأُبُوَّةٍ، وهذا هو ما ظهر باستقراء ما نقل من أخبارٍ وقصص وروايات، وقد يشذُّ عن هذا شيءٌ ما فيسود العقوقُ العَلاقةَ، وتصبح المودّة والرحمة بغضاً وشنآناً، وكان المؤدِّبون يؤمَّلون ممَّن تأدَّب بهم شيئاً من الدنيا إذا صار إليهم أمرها، فقد كان أبو عمروٍ الشيبانيُّ يؤدِّبُ أبا أحمد بن الرشيد، فلمّا كبر أبو أحمد لم ير أبو عمرو منه ما كان أمَّله، فكتب إليه:

إنَّ حَـقَّ التأديبِ حَقُّ الأُبُوَّهْ
عند أهل النُّهى وأهْل المُروَّهْ
وأحقُّ الأقوامِ أن يعرفوا الحَـ
ـقَّ ويرعوه أهل بيتِ النُّبوَّهْ»[1]

ولا ملامة على أبـي عمرو أن يؤمِّل خيراً ممّن تأدّب بـه، وهي عادةٌ تعرف أمم الأرض وجه الحقِّ فيهـا، قيل لبزرجمهر: «مالتعظـيمك لمؤدِّبك أشدَّ من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأنّ أبي كان سببَ حياتي الفانية، ومؤدِّبي سببَ حياتي الباقية»[2].

وقد صار بعض المؤدِّبين ندماء لمن أدّبوهم أو آبائهم، كـالكسائيّ بعد إعفائه من تأديب أولاد الرشيد لوضحٍ ظهر فيه، بل صار من خواصِّه، حتى لامه أبويوسف؛ إذ «دخل أبو يوسف على الرشيـد، والكسائيُّ عنده يمازحه، فـقال له أبو يوسُفَ: هذا الكوفي قد استفرغك، وغلب عليك، فقال: يا أبا يوسُفَ، إنّه ليأتيني بأشياءَ يشتمل علـيها قلبي»[3]. وكان الكسـائي ومحمّـد بن الحسن الشّيـبانيّ يصحـبان الرشيد في حلِّه ومقامه حـتى توفيا في يومٍ واحدٍ في الري من سنة (١٨٩هـ) فقال الرشيـد: «دفنا الفقـه واللُّغة في الرَّيِّ فـي يومٍ واحد»[4]. «وكان الرشـيد يعظِّم

(١) الصفدي / الوافي بالوفيات ٥ / ١٤٢.
(٢) أبو حيّان / البصائر والذخائر ١٠/ ١٤٩.
(٣) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ١٢٧.
(٤) السابق ١٣٠.

الكسائيَّ لتأديبه إيَّاه»[1].

وفي معجم الأدباء «كان الكسائيّ مُؤَدِّباً لولد الرشيد، وكان أثيراً عند الخليفة، حتّى أخرجه من طبقة المؤدِّبين إلى طبقة الجلساءِ والمؤانسين»[2].

أمّا إبراهيم بن سعدان (عاش في القرن الثالث) مؤدِّب المؤيَّد بن المتوكّل، فكان ذا منزلة عنده[3]. قال المتوكّل لأبي العيناء: إنَ ابن سعدان يتّهمك بالرفض، فقال أبو العيناء: «ومن ابْنُ سعدانَ، والله ما يفرِّقُ بين الإمام والمأموم، والتابع والمتبوع، إنّما ذاك حاملُ درَّةٍ، ومعلِّم صبيةٍ، وآخـذٌ على كتاب الله أجره، فقال: لا تفعلْ؛ لأنّه مُؤَدِّب المؤيَّد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّه لم يُؤَدِّبْه حِسْبةً، وإنّما أدَّبه بأجرةٍ، فإذا أعطيته حقّـه فقد قضيت ذِمامه، فقام ابن سـعدان، فقال: يا أبا العيناء: لا، والله ما صدقَ أميرَ المؤمنين في شيءٍ ممّا حكاه عنّي! ثمَ أقبل على المتوكّل، فقال: أيُّ شيءٍ أسهل عليك يا أمـير المؤمنين من أن ينقضي مـجلسك على ما تحبُّ، ثمَ يخرج هذا فتقطعني، قال: فضحك المتوكّل»[4].

«وأمّا أحـمد بن عبـد الوهّاب بن هبة الله، أبو البـركاتِ (ت ٥١٤ هـ) فـهو مُؤَدِّب الخلفاء، وكانت له معرفة حسنةٌ بالآداب، وكان يعلّم أولاد المستظهر، وكان له أنسٌ بالمسترشد»[5].

وكان الحـسين بن الوليد بن نصـر المعروف بابن العريـف (ت ٣٩٠ هـ) نحوياً أندلسياً «اختاره المنصور محمد بن أبي عامر صاحبُ الأندلس مُؤدِّباً لأولاده، وكان يحضر مجالسه، ومناظراته مع أبي العلاء صاعد اللغويّ مشهورة، ومنها مناظرة له

(١) ابن الأنباريّ / نزهة الألبّاء ٧٣.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ١٦٨.

(٣) السابق ١ / ١٥٢.

(٤) السابق ١ / ١٥٤.

(٥) السابق ٣ / ٢٢٧.

بعد مناظرة العاصميّ والزّبيديّ اللّذين غلبا صاعداً، ظهر فيها صاعدٌ عليه، ثم حسده فيما بعد، في قصة معروفة»[1].

«وقد ترقى يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكّيت (ت ٢٤٣ هـ) الذي كان يؤدِّب الصبيانَ مع أبيه إلى تأديب ولد المتوكل، وأسنى له الرّزقَ، ثمّ دعاه إلى منادمته، فنهاه عبد الله بن عبد العزيز عن ذلك، فظنّ أنّه حسده، وأجاب إلى ما دُعي إليه، فكانت نهايته»[2].

وصار الزّجّاجُ مؤَدِّبُ القاسم بن عبيد الله بن سليمان على ظلامات الناسِ وحوائجهم بسبب التأديب، وحسنت حالُه، وتأثَّل مالاً، ذلك أنّه قال: «للقاسم ابن عبيد الله، إن بلَّغك الله مبلغ أبيك، ووليت الوزارة فماذا تصنع بي؟ فيقول القاسم: ماذا أحببْتَ، فأقول له: عشرين ألف دينارٍ، وكانت غاية أمنيتي، فما مضتْ سنون حتّى ولي القاسمُ الوزارة، وأنا على ملازمتي له، وصرتُ نديمه، فدعتني نفسي إلى إذكاره، ثمَّ هبْتُه، فلمّا كان في اليوم الثالث من وزارته، قال لي: يا أبا إسحاقَ، لم أرك أذكرْتَني بالنَّذْر، فقلت: عوّلْتُ على رعاية الوزير (أيّده الله)، وأنّه لا يحتاج إلى إذكارٍ بنذرٍ عليه في أمر خادم واجب الحقِّ، فقال لي: إنّه المعتضد، ولولاه ما تعاظمني دفعُ ذلك إليك في مكانٍ واحد، ولكنّي أخافُ أن يصير لي معه حديثٌ، فاسمح بأخْذه متفرِّقاً، فقلْتُ: يا سيدي، أفعلُ، فقال: اجلِسْ للنَاس، وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار، واستجعل عليها، ولا تمتنع عن مسألتي شيئاً تخاطَبُ فيه، صحيحاً كان أو محالاً، إلى أن يحصل لك مالُ النذر» في قصة يطول إيرادها، ثمَ أمره بالاستمرار في عمله بعد أن وفَاه نذره، وزيادة[3].

وكان القاسم لفرطِ تعلُّقه بالزَجّاج يخاف عليه من المعتضد، ولم يبرز علمه له،

(١) السابق ٨ / ١٨٤-١٨٧، ثم انظر ٨ / ١٩١.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٢ / ٥١.

(٣) السابق ١ / ١٣١ - ١٣٥.

حتى اضطرّ في مسألةٍ تتعلّق بالثنائيّ من اللغة[1].

«وكان عليّ بن محمد الشمشاطي العدويّ، أبو الحسن (ت بعد سنة ٣٧٧ هـ) معلّم أبي تغلب بن ناصر الدّولة الحمداني، وأخيه، ثمّ نادمهما»[2].

وكان أحمد بن سهلٍ البلخيّ، أبو زيد (ت ٣٢٢ هـ) معلّم صبيان، وهو أشبه بأهل الأدب، ثمّ رفعه العلم إلى مرتبة عليّةٍ[3].

ناهيك عن أنّ هؤلاء المؤدّبين كان يخدمهم أولياء العهد، ممّن صاروا خلفاءَ فيما بعد، كما فعل الأمينُ والمأمونُ بالكسائيّ، وكما فعل ابن المأمونِ بالفرّاء، ويا لها من عِزّةٍ، غير ما كان لهم من الجاه، وما حصّلوه من الدنيا بسببِ التأديبِ، وقد سبقَ في سرد أسماء المؤدّبين أسماء لامعة في سماء الأدب واللغة والنحو، بل كانوا أئمّةً في شعب العربيّة وآدابها المختلفة، وإليهم المنتهى، وهُمُ الحجّة.

ولم تكن علاقة المؤدِّبينَ بمن يؤدِّبونهم حميدةً دائماً، فهي في أصلها علاقة تسودها المحبة، وتظلُّها الرحمة، ويكسوها الود، ويرفرف عليها الحنو والعطف، وتصحب بالاحترام والتقدير، والنصح والإخلاص، إلى جانب علائق انتهت نهاية قاتمة بئيسة.

فمثلاً الكسائي كان يحظى من الرشيد وأولاده بالتقدير والاحترام، وكان في مقابل ذلك يكنُّ لهم تعظيماً وتبجيلاً.

قد كان من المؤدَّبين اعتراف وشكر، وكان من مُؤَدِّبيهم عطفٌ ومودَّةٌ ورحمة، فمثلاً الكسائي، أشرف عليه الرشيد، وهو لا يراه، فقام الكسائيّ ليلبس نعليه لحاجةٍ يريدها، فابتدرها الأمين والمأمون، وكان مؤدِّبهما، فوضعاها بين يديه، فقبَّل رءوسهما وأيديهما، ثمّ أقسم عليهما ألاَّ يعاودا، فلمَّا جلس الرشيد مجلسه، قال: أيُّ النّاس أكرم خدماً، قال: «أمير المؤمنين ـ أعزّه الله ـ قال: بل الكسائيّ يخدمه الأمين والمأمون، وحدثهم الحديث»[4].

(١) السابق ١ / ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ١٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٦٥.

(٤) ياقوت / معجم الأدباء ١٣/ ١٩٣.

ومثل هذه الحكاية تحكى عن الفرّاء مع ولدي المأمون[1].

وممّا يصوِّر العلاقة الجيِّدة بين الطرفين المؤدّب أحمد بن سعيد بن عبد الله الدمشقيّ (ت ٣٠٦ هـ) مؤدِّب ولد المعتزّ؛ إذ يقول: «كنت أؤدِّبُ أولاد المعتزّ، فتحمَّل أحمد بن يحيى بن جابر البلاذريّ على قبيحة أُمِّ المعتزِّ بقومٍ سألوها أن تأذنَ له في أن يدخل إلى ابن المعتزّ وقتاً من النهار، فأجابت، أو كادت تجيب، فلمَّا اتّصل الخبر بي جلست في منزلي غضبانَ مفكراً لما بلغني عنها، فكتب إليَّ عبد الله بن المعتزّ، وله ثلاث عشرة سنة:

أصبحْتَ يا ابن سعيد حُزْتَ مَكْرُمَةً
عنها يقصِّر من يحفى وينتعِلُ
سربلتني حكمةً قد هذَّبَتْ شِيَمي
وأجَّجتْ غربَ ذهني فهو مشتعِلُ
أكونُ إنْ شئْتُ قُسّاً في خطابته
أو حارثاً وهْوَ يومَ الفخر مرتَحِلُ
وإن أشأْ فكزيدٍ في فرائضه
أو مثل نعمانَ ما ضاقَتْ به الحِيَلُ
أو الخليل عروضيّاً أخا فطَنٍ
أو الكسائيّ نحويّاً له عِلَلُ
تغلي بداهة ذهني في مركبها
كمثل ما عُرِفَتْ آبائي الأُوَلُ
وفي فمي صارمٌ ما سلَّه أحدٌ
من غمده فدرى ما العيش والجَذَلُ
عُقباك شكرٌ طويلٌ لا نفاد له
تبقى معالمه ما أطَّتِ الإبِلُ »[2]

(١) ابن الأنباريّ / نزهة الألبّاء ص ١٠٠.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٤٧-٤٩.

«وكان ابن المعتزّ يعرف قدر شيخه، ويرفعه عن مواقف الذُّلِّ والإهانة، ولامه على كتابٍ اعتذر فيه إلى ابن المعتزّ من شيءٍ بلغه عنه، فقال: والله لا قابل إحسانَك مني كفرٌ، ولا تبِعَ إحساني إليكَ مَنٌّ، فلك مِنِّي يدٌ لا أقبضها عن نفعك، وأخرى لا أبسطها إلى ظلمك، ما يسخطني فإنّي أصون وجْهَك عن ذُلِّ الاعتذار»(١).

ولعلّ هذه العلاقة الحميمة تفسِّر رواية مُؤَدِّبه أدَبه، قال ابن الأنباريّ:

«وروى عنه أدبَه أحمد بن سعيدٍ الدّمشقيّ، وكان مُؤدِّبه»(٢).

ولا يستغربُ أن يموت المؤدَّبُ فيرثيَه المؤدِّب، كما فعل أبو عبد الله محمد بن حسّان الضَّبيّ (ت بعد سنة ٤٢٢ هـ) وكان نحويّاً فاضلاً، وأديباً شاعراً، وكان يُؤَدِّبُ العبَّاسَ بن المأمون، وغيره من ولده، فماتوا، فقال يرثيهم:

خَلِّ دَمْعَ العَيْنِ ينهمِلُ
بان من أهواهُ فاحْتُملوا
كُلُّ دمع صانه كَلِفُ
فَهْوَ يومَ البين مُبْتَذَلُ
يا أخِلاّئي الّذين نأتْ
بهم الطّيّاتُ وانتقلوا
قد أبى أن ينتني بكمُ
أوبةٌ يحيا بها الأمَلُ»(٣)

ولعلّ الشكر والوفاء يتجليّان في علاقة أبي عبيدٍ القاسم بن سلام (ت ٢٢٣ هـ) بمن أدّب لهم من آل طاهر، خاصّةً عبد الله بن طاهر، الذي أغناه وكفاه شأنَهُ

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٤٩.

(٢) ابن الأنباري / نزهة الألبّاء ص ٢٣٤.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ١٨/ ١١٩-١٢٠.

من الدنيا، حتّى امتنع من أخذ شيءٍ من أبي دُلف القاسم بن عيسى[1].

ولم تكن العلاقة بين الطرفين حميدةً في كل حال، إذ تحدّثنا كُتب التراجم عن المؤدّب محمد بن عبدالله بن قادم (ت ٢٥١ هـ) وكان يؤدِّبُ ولد سعيد بن قُتيبةَ الباهليّ، ثمّ المعتزّ قبل الخلافة، فلمّا ولِّي بعثَ إليه، فقيل: أجِبْ أمير المؤمنين، فقال: أليس هو ببغداد، يعني: المستعين، فقالوا: لا، وقد وليَ المعتزّ، وكان قد حقد عليه بطريق تأديبه له، فخشي من بادرته، فقال لعيالِه: عليكم السَّلام، فخرج، ولم يرجع إليهم، ولم تمنع مكانة ابن قادمٍ العلمية من هذا المصير[2].

وقريبٌ من هذا نهاية المؤدِّب يعقوب بن السكّيت (ت ٢٤٣ هـ) الذي أدّب للمتوكّل، ثمّ دعاه إلى منادمته، فنهاه عبدالله بن عبدالعزيز عن ذلك، فظنَّ أنّه حسده، وأجاب إلى ما دُعِيَ إليه، فبينما هو مع المتوكّل يوماً جاء المعتزّ والمؤيِّدُ، فقال له المتوكل: يا يعقوبُ، أيُّما أحَبُّ إليك ابناي هذان أم الحسين؟ فذكر الحسن والحسين (رضي الله عنهما) بما هما أهله، وسكتَ عن ابنيه، وقيل: قال له: إنّ قنبراً خادم عليّ أحبُّ إليَّ من ابنيك، وكان يعقوبُ يتشيَّع، فأمر المتوكِّل الأتراك فسلُّوا لسانه، وداسوا بطنه، وحُمِلَ وقيذاً إلى بيته، فعاش يوماً، وبعض آخر، ثمّ مات»[3].

وهناك ظاهرةٌ غريبة في التأديب، وهي نسبة المؤدِّب إلى من يؤدِّبهم، مثل نسبة أبي محمد بن المبارك اليزيديّ، مولى بني عديّ بن عبد مناة بن تميم، قيل له: اليزيديّ؛ لأنّه أدّبَ أولاد يزيدَ بن منصورٍ الحميريّ، وقيل: نسب إلى اليزيد، وكان مؤدباً ليزيد[4] بن يزيد بن مزيد بن زائدة، ابن أخي معن بن زائدة الشيباني على عهد الرشيد، توفي سنة (٢٣٠ هـ).

(١) انظر ياقوت / معجم الأدباء ٦ / ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ١٨/ ٢٠٧-٢٠٩.

(٣) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢٠٢، وياقوت / معجم الأدباء ٢٠/ ٥١.

(٤) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٦١.

وقيل: «إنّما سُمِّي يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمدٍ باليزيديّ؛ لأنّه صحِبَ يزيد بن منصورٍ خال المهديّ مؤدِّباً لولده، فنسب إليه، ثم اتصل بالرشيد، فجعله مؤدِّباً للمأمون. . . ألّف المختصر في النحو لبعض ولد المأمون»[1].

ومن هذا نسبة أبي عمرو إسحاقَ بن مرارٍ الشيباني (ت ٢٠٦ هـ)؛ إذ كان «مولىً، وليس من بني شيبانَ، وإنّما كان مؤدِّباً لأولاد ناس من بني شيبانَ، فنُسِبَ إليهم، كما نُسِبَ اليزيديُّ إلى يزيد بن منصورٍ حين أدّب ولده. . . قال يوسفُ الأصفهانيّ: أبو عمرٍو الشيبانيّ من الدَّهاقين، وإنّما قِيلَ له: الشيباني؛ لأنَّه كان يُؤَدِّبُ ولد هارون الرشيد الذين كانوا في حجر يزيد بن مزيد الشيبانيّ، فنسِبَ إليه»[2].

* * *

ومن غريب التأديب أن يكون هناك مُؤَدِّبة، ومن السَّائغ في الحياة الإسلامية، أن تكون مؤدِّبةٌ أو معلِّمة لبناتِ جنسها، ويمكن لنا تجوُّزاً، أو على مذهب أهل الأندلس الذين يتوسَّعونَ في التأديبِ عدُّ حفصة بنت الحاج الرَّكوني (ت ٥٨٦ هـ) مؤدِّبة النِّساء في دار المنصور بن أبي عامرٍ، وهي شاعرة أديبةٌ من أهل غرناطة، مشهورة بالحسب، والأدبِ، والجمالِ، والمال، جيّدة البديهة، رقيقة الشّعر، أستاذة، ولِّيت تعليم النساء في دار المنصور، أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ، وسألها يوماً أن تنشده، فقالت ارتجالاً:

يا سيِّدَ النَّاسِ يا من
يُؤَمِّلُ النّاسُ رِفْدَهْ
امنُنْ عليَّ بطرسٍ
يكون للدَّهْرِ عُدَّهْ
تَخُطُّ يمناك فيه
الحمد لله وحدَهْ

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٢٠/ ٣٠-٣١.

(٢) السابق ٦ / ٧٨.

وكان لها قصصٌ وأشعارٌ مع أبي جعفر أحمد بن عبد الملك العنسيّ، وكانَ عاشقاً متّصلاً بها، يتبادلان رسائل الغرام، وقُتِلَ بسببها، وقد قالت:

أغار عليك من عيني وقلبي
ومنك ومن زمانِكَ والمكانِ
ولو أنّي جعلتك في عيوني
إلى يوم القيامة ما كفاني[1]

وفي الأندلس أيضاً مريمُ بنت أبي يعقوبَ الفيصولي الشّلبي الحاجَّة، أديبةٌ شاعرةٌ، جَزْلةٌ مشهورةٌ، كانتْ تعلِّم النِّساءَ الأدبَ، وتحتشم لدينها وفضلها، وعمّرت عمراً طويلاً، سكنت إشبيلية، وشهرت بعد الأربعمائة، لها شعر، منه أبياتٌ في الصلة[2].

وممّا يتّصل بهذا أن بعض المؤدِّبين أدَّب بنتَه، كما يحكى عن زياد بن تقيّ من قرية بادي من أعمال وادي آشي، وكان مؤدباً على طريقة أهل الأندلس في التأديب. كما في طبقات الزُّبيدي، وهم يتوسّعون في معناه، وأدّب بنته حمدة، ويقال: حمدونة... كانتْ أديبةً نبيلةً شاعرةً، ذات جمالٍ ومالٍ مع العفاف والصّون، إلاّ أنَّ حُبَّ الأدبِ كان يحملها على مخالطة أهله مع نزاهةٍ موثوقٍ بها، وكانتْ تلقّب بخنساء المغرب، وشاعرة الأندلس... وقد نسب إليها أَهْلُ المغربِ الأبيات الشهيرة المنسوبة للمنازيّ أحمد بن يوسف الشاعر المشهور (ت ٣٤٧ هـ)، وهي:

(١) ياقوت / معجم الأدباء ١٠ / ٢٢٠-٢٢٧.
(٢) ابن بشكوال / الصلة ٢ / ٦٩٤-٦٩٥.

وقـانا لـفـحـةَ الرمــضـاءِ وادٍ
سقـاهُ مضـاعَفُ الغيثِ العـميمِ
حلـلنا دوْحــــه فــحـنا علـينا
حُنُوَّ المرضــعـاتِ على الـفطيمِ
وأرشـــفنا عـلى ظمـــأٍ زلالاً
ألـذَّ من المـدامــــــة لـلنَّـديمِ
يَصُـدُّ الـشَّـمْس أنَّى واجـهــتنا
فـيـحـجبـهـا، ويأذَنُ للنّـسـيمِ
يروعُ حـصـاهُ حـالـيـة العـذارى
فتلمـس جانب العقـد النّظيمِ(١)

* * *

حفظت لنا كتب التراجم شيئاً مما يدور في مجالس المؤدّبين سواء كانت مجالس يشهدها المؤدِّبون، ويدور حوارها بينهم، أو كانت مجالس يشهدها المؤدِّبون وغيرهم من أهل العلم، والرواية، فـيدور الحـوار بين المؤدِّبين وغيـرهم، ولا يمكن لنا في هذه العجالة إلاّ إلمامة يسيرةٌ ببعض تلك المجالس، والأخبار، والمشاركات العلمية، ومن هذه: خـبر تأديـب أبي الحسن الأخـفش أولاد الكسـائي «لما ناظر سـيبـويه الكسائيَّ، ورجع، وجَّـه إليَّ، فعرَّفني خـبره معه، ومـضى إلى الأهواز، فوردت بغدادَ، فـرأيْتُ مسـجد الكسائيّ، فـصلّيت خلفه الغـداة، فلمّا انفـتل من صلاته وقعد، وبين يديه الفرّاء، والأحمر، وابن سعدان سلّمت، وسألْته عن مائةِ مسألةٍ، فأجاب بجواباتٍ خطّأته في جميعـها، فأراد أصحابه الوثوبَ عليَّ، فمنعهم، ولم

(١) ياقوت / معجم الأدباء ١٠ / ٢٧٤-٢٧٨.

يقطعْني ما رأيتهم عليه عمّا كُنْتُ فيه، فلمَّا فَرغْتُ قال لي: بالله، أما أنتَ أبو الحسن سعيد بن مسعدة؟ قلت: بلى، فقام إليَّ وعانقني، وأجلسني إلى جنبه، ثم قال: لي أولادٌ أُحِبُّ أن يتأدَّبوا بك، ويتخرَّجوا عليك، وتكون معي غير مفارقٍ لي، فأجبْتُه إلى ذلك...»[1].

ومجلس الأصمعيّ مع أبي توبة ميمون بن حفص، وكان مؤدِّباً لعمرو بن سعيد بن سَلْم، فقدم الأصمعيّ البصرة، فنزل على سعيد بن سلم، فحضر يوماً، وأخذ يسائله، فدعا سعيدٌ بأبي توبة، فجعل أبو توبة إذا مرَّ شيءٌ من الغريب بادر إليه، فيأتي بكلِّ ما في البابِ، أو أكثره، فشقَّ ذلك على الأصمعيِّ، فعدل إلى المعاني، فسأل أبا توبة عنها، فقال له سعيدٌ: لا تتبعْهُ يا أبا توبة في هذا الفنّ، فإنَّ هذه صناعته، فقال: وما عليَّ إذا سألني عمّا أحسنُه أجبتُه، وما لم أُحْسِنْ تعلَّمْتُه، فلم يزل الأصمعيُّ يسأله، وأبو توبة يجيبُه، حتى سأله عن هذا البيتِ:

واحدةٌ أعجزكم أمْرها

فكيف لو دُرْتَ على أربَعِ

قال: ونهض الأصمعيُّ، فدار على أربع ليلبِّس على أبي توبة، فأجابه أبو توبة بجوابٍ يشاكل ما وهمه، فضحك الأصمعيّ من جوابه، فقال له سعيد: ألم أَقُلْ لك يا أبا توبة؟!

قال: ومعنى البيت: أنّه تزوّج امرأةً واحدة، فقال: قد شَقَّ عليك أنْ تزوّجْتَ واحدة، فكيف لو تزوَّجْتَ أربعاً[2].

ومن طريف مجالس المؤدِّبين مجلس ثعلبٍ مع محمّد بن حبيب، قال ثعلبٌ: أتيْتُ محمد بن حبيب، وقد كان بلغني أنَّه يملُّ شعر حسّان بن ثابتٍ، فلمّا عرف

(١) السابق ١١ / ٢٢٧-٢٢٩.

(٢) الزجاجي / مجالس العلماء ٣٣ - ٤٤.

موضـعي قطع الإملاء، فتـرفَّقْتُ به، فأملَّ، وكان لا يقـعد في المسجـد الجامع، فعذلْتُـه على ذلك، فأبى. فلم أزلْ به حتى قعـد في جمعةٍ من الجـمع، واجتمع النّاسُ، فسأله سائلٌ عن هذه الأبياتِ [لبعض الأعراب يخاطِبُ امرأته]:

أَزُحْنَـةُ عنّي تَطْـرُدينَ تبـــدَّدَتْ
بلحـمك طيــرٌ طِرْنَ كلَّ قطيـرِ
قِـفي لا تزلّي زلَّةً لـيس بَعْـدَها
جُـبـورٌ وزَلاَّت النســاء كـثـيـرُ
فـــإنّي وإيَّاه كـرجْـلَيْ نعـامــةٍ
على كُلِّ حـالٍ من غنًى وفـقيـرِ

ففسَّر ما فيه من اللغة، فقيل له: كيف قال: «من غنىً وفقيرِ»، وإنما كان يجبُ أن يقول: من غنىً وفَقْرٍ؟ فاضطربَ، فقلْتُ للسَّائل: هذا عربيَّةٌ، وأنا أَنوبُ عنه، وَبيَّنْتُ العِلَّةَ، فانصرفَ، ثمّ لم يَعُدْ بعد ذلك للقُعودِ، وانقطعت عنه.

قــال أبو العبّـاسِ: ورجلا نعـامــةٍ لا تنوبُ واحدةٌ عن الأخـرى، لأنّه لا مُخَّ فيهما، وسائر الحيوانِ إذا عَيِيَتْ إحدى رجليْهِ استعان بالأخرى، ويقال: هما رجلا نعـامةٍ، والمصــادر تُرَدُّ على الأسمــاء، والأسمـاءُ تُرَدُّ على المصادر؛ لأنّ المصــادر ظهرتْ ظهورَ الأسماء، وتمكَّن الإعراب منها(١).

ويَحْسُنُ بنا أَنْ نُوردَ في هذا المقـام شيئاً من مجالــس اليزيديّ والكسائيّ، وهي من أحفل المجالس بالـطرائف والنّكات العلمية؛ إذْ كان يحيــى بن المبارك اليزيديُّ بصرياً، وليس هو في النحو من طـبقة الخليل، ولا من طبقة سيـبويه والأخفش، وتأخّر موتــه، وكان مُؤَدِّب المأمون، والكسائـي مؤدِّب أخيه محـمد الأمين، وبينه

(١) السابق ٩٧-٩٨.

وبين الكسائيّ مقارضة بسبب تأديبهما الأخوين، ولليزيديّ قصيدة يمدح نحويّي البصرة، ويهجو الكسائيّ وأصحابه، فيها:

يا طالب النحو ألا فابْكه
بعَد أبي عمروٍ وحمَّادِ
وابن أبي إسحاقَ في علمه
والزّين في المشهد والنّادِ
عيسى وأشباه بعيسى، وهل
يأتي لهم دهر بأندادِ
هيهاتَ إلاّ قائلاً عنهم
أرسوا له الأَصْلَ بأوتادِ
فَهْوَ بمنهاجِهِم سالكٌ
لفضلِهِمْ ليس بجحَّادِ
ويُونُسَ النّحويَّ لا تَنْسَهُ
ولا خليلاً حَيَّة الوادي
وقُلْ لمن يطلب علماً ألا
نادِ بأعلى شرفٍ، نادِ:
يا ضَيْعةَ النّحو! به مُغْربٌ
عَنقاءُ أَوْدَتْ ذات إصعادِ
أفْسَدَه قومٌ وأزروا به
من بين أغنامٍ وأوغادِ
ذوي مِراءٍ وذوي لُكْنَة
لِئَامِ آباءٍ وأَجْدادِ
لهم قياسٌ أَحْدَثُوه هُمُ
قياسُ سوءٍ غيرُ مُنقادِ
فَهُمْ من النّحو ولو عُمِّرَوا
أعمارَ عادٍ في أبي جادِ
أمّا الكسائيُّ فذاك امرؤٌ
في النحو حارٍ غير مزدادِ
وهْوَ لمن يأتيه جهلاً به
مثلُ سرابِ البيدِ للصّادي(١)

(١) السيرافي / أخبار النحويين البصريين ٥٥ - ٥٧.

و «سأل اليزيديُّ الكسائيَّ بحضرة الرشيد، وقال: انظروا في هذا الشعر عيب؟! وأنشده:

ما رأينا خَرَباً نقَّـ
ـر عنه البيضَ صَقْرُ
لا يكون العَيْر مُهْراً،
لا يكون، المُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائيُّ: قد أقوى الشاعر، فقال اليزيديُّ: انظُرْ جيِّداً، فقال: أقوى، لابُدَّ أن ينصبَ المهر الثاني، على أنّه خبر كان. قال: فضربَ اليزيديُّ بقلنسوته الأرض، وقال: أنا أبو محمد، الشعر صوابٌ، إنّما ابتدأ، فقال: "المُهْرُ مُهْرٌ". فقال له يحيى بن خالد: أتتكنَّى بحضرةِ أمير المؤمنين، وتكشف رأسَكَ! والله لخطأ الكسائيّ مع أدبه أحبُّ إلينا من صوابك مع فعلك. فقال: لغة الغَلَب أنستني من هذا ما أُحْسِنُ»[1].

وقال أبو محمّدٍ اليزيديُّ: سألني أبو عبيدِ الله، ونحن بعياباذ، فقال: ما تقولُ يا أبا محمدٍ في الشراءِ مقصور أو ممدودٌ؟ قلت له: ممدودٌ، قال والكسائيّ حاضر. قال: فسأل الكسائيّ، فقال: مقصورٌ، قلت: أخطأ الكسائيُّ، قال: وكيف ذاك؟ قلت له: كيف تجمع شِرىً؟ قال: أشْرِيةٌ، قلْتُ: فإن هذا دليل على أنّ شراء ممدودٌ؛ لأنّ كُلَّ ممدود جماعُه بالهاء، مثل قولك: كساءٌ وأكسية، وبناءٌ وأبنية، وسماءٌ وأسمية، وفِناءٌ وأفْنية، فقال الكسائيُّ: ما سمعْتُ أعرابيّاً إلاّ وهو يقصره، فقلتُ: بَرَحَ الخفاءُ، ادْعُ بالأعرابِ فهم هاهنا حَوْلَك. وقد كانت أصابتهم مجاعةٌ، فدعا منهم بعدَّةٍ، فدخلوا عليه. قال أبو محمد: فكلَّمت الأعرابَ الفُصحاءَ، وناشدتهم الشعر حتّى عرفنا مذاهبهم في العلم، ثم قلْتُ للكسائيّ:

(١) الزجاجي / مجالس العلماء ٢٥٥ - ٢٥٦، والسيرافي / أخبار النحويين البصريين ٥٥ - ٧٧٥.

ترضى أن يكونوا بيننا وبينك، قال: نعم، فقلتُ لأفصحهم: كيف تقولُ في الكلام: اكتب هذا في شراك؟ قال: سبحان الله، اكتب هذا في شرائك، فمدّ، فخجل الكسائي[1].

وسأل الفضل بن الربيع الفرّاء مَرَّة، فقال: من أعلمُ أبو محمّدٍ أو الكسائي؟

فقال الفرّاءُ: عافى الله أبا محمّدٍ، أبو محمّدٍ رجُلٌ عاقلٌ، والكسائيُّ الكسائيُّ: اسمه وصوته، لم نلقَ أحداً أعلم منه. قال أبو محمّد: فلقيته: فقلْتُ: يا دبّاغُ، إنّما سُئِلْتَ عن تزكيتي أو علمي، قال: يا أبا محمّد، المعذِرةَ إليك، والله ما تعمَّدته. فقلت له: ويْحَكَ، فضحْتُ الكسائيَّ في تسع مسائل، خطأته فيها بين يدي المهديّ. فقال له: أبو إسحاق: كيف كان السبب؟ قال: كان انقطاعُه إلى الحسَن الحاجِب أخي المفضّل الحاجب مولى أمير المؤمنين، وكان انقطاعي إلى يزيد ابن منصور الحميريّ خالِ أمير المؤمنين المهديّ، وبه لُقِّبْتُ اليزيديّ، فوصفني يزيد للمهديِّ، ووصف الحسَن الحاجبُ الكسائيَّ، فقال المهديّ أجمع بينهما، فاجتمعنا، فقلت للكسائيّ: أسألكَ أم تَسْأَلُني؟ قال: سَلْ، قال: قُلْتُ: كيف تقولُ: مررْتُ حجّاماً برجل؟ قال: كما قُلْتَ، فقلت: أخطأْت، فقال المهديُّ للكسائيّ: مكانَك، أخبرني: أَنْتَ الحجّام أمِ الرَّجُل؟ لئن كنت الحجّام فأقبح بهذه المسألة، أو يكون الحجّام هو الرَّجُلَ فهو أقبح منها أن تفرُقَ بين الحجّام ونعته، فتقدمّه، فقال الكسائيّ: العرب تفعل هذا، قالت:

لعزَّةَ موحشاً طَلَلُ

[يلوح كأنّه خِلَلُ]

فسكت المهديُّ حين سَمِع ذلك. فقلت: هاهنا ما يوحِشُكَ من هذا، إنّ "مَررْتُ" إذا جاءَت أبَداً لا تتعلَّق إلاّ باسمٍ تخفضُه، ولا يحال بينها وبين

(١) الزجاجي / مجالس العلماء ١٦٩ - ١٧٠.

الخافض، وليس هـذا في: لعزَة موحـشاً طَلَلُ قـال: فاشتـهاها المهـديّ، وقال: صَدَقْتَ، واستخفّني المَهْدِيُّ، وضَحِكَ[1].

قال خلفٌ البزّازُ: «جمعت الكسائيّ واليزيديّ في عِرْسِ أُمِّ هؤلاء ـ يعني أولاده ـ فقال له اليـزيديُّ: يا أبا الحَسَنِ تَأتينا عنك أشياءُ ننـكرها، فقال: وأيُّ شيءٍ مع النّاسِ إلا فضْلُ بَزاقي. قال: فما كلّمه حـتّى قام. قال أبو العبّاسِ: كانَ الكسائيُّ لم يكن يعتلُّ (يتجنّى) فإذا اعتلَّ لم يُقَمْ له»[2].

وقد أورد الزّجّاجيُّ مـجلساً لليزيديِّ والكسائيّ عند المهديِّ، دارت فيـه مسائل في النسبة والنحو، وهي مسائل لا تخلو من المغالطة[3].

وكـان بعض العلماء يـراعي مكان الكسائيّ من الـرشيـد، حتّى قـال: تُؤْذون جليسَنا ومُؤَدِّبَ وَلَدِ أميرِ المؤمنين[4]. غير أنّ هذا لم يمنعهم من ردِّ خطئه عليه إذا أخطأ؛ إذْ صَحَّح له يونس بيتَ الفرزدق:

غداة أحلَّتْ لابن أصرمَ طعنةٌ

حصينٍ عبيطاتِ السَّدائفِ والخَمْرُ

فردَّه يونُس إلى:

غدا أحلَّتْ لابن أصرمَ ضربةٌ

حصينٍ عبيطاتُ السَّدائفِ والخَمْرُ

جعل الفاعل مفعولاً، فقال الكسائيُّ: هذا على هذا وَجْهٌ[5].

(١) السابق ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) السابق ص ٥.

(٣) ينظر الزجاجيّ / مجالس العلماء ٢٨٨ - ٢٩٣.

(٤) الزجاجي / مجالس العلماء ٢٤٤.

(٥) السابق ٢١ - ٢٢.

ولم يقتصر الأمر على الكسائيّ، بل كان لأبي محمَّدٍ اليزيديّ مجالسُ مع عليّ الأحمر صاحب الكسائي وتلميذه. قال أبو محمد اليزيدي: كنت جالساً مع الفضل بن الربيع. فدخل علينا عليّ الأحمر، فجلس إلى الفضل، فقال لي الفضل: من كان أعلم بالنحو الكسائيّ أوْ أبو عمرو بن العلاء، وكان أبو عمرو أستاذ أبي محمّدٍ، قال: قُلْتُ له: أصلحَك الله، لم يكن أحدٌ أعلمَ من أبي عمروٍ، فقال الأحمر: لم يكن يعرفُ التصريف. فقلْتُ له: ليس التصريفُ من النحو في شيْءٍ، إنّما هو شيءٌ ولَدْناه نحن واصطلحنا عليه، وكان أبو عمروٍ أنبلَ من أن ينظر فيما ولَّد النّاس.

قال: ولِمَ؟ قلْتُ: لأنه جاور البدو أربعين سنةً، ولم يُقِم الكسائيُّ بالبدوِ أربعين يوماً.

ثمَّ قلت له: أنت أيضاً تزعم أنّ الكسائيَّ لم يكن يُبْصِرُ التصريف، وأنت تَزْعُمُ أنّك علَّمْتَه، فسكَتَ، فلمّا أراد أن يقوم أخذتُ دواةً وقرطاساً، وكتبت:

زعم الأحمرُ المقيتُ عليٌّ
والّذي أُمُّه تدينُ بمقْتِهْ
أنّه علّم الكسائيَّ تصريـ
ـفاً فإن كان ذا كذا فبإسْتِهْ

ثُمَّ دَفَعْتُ الرُّقْعَة إلى الفَضْلِ، فما زال يضحَكُ منها، والأحمر لا يدري من أيِّ شيءٍ يَضْحَكُ[1].

وهناك مجالس وأخبارٌ كثيرةٌ للمؤدِّبين، ينظر فيها من مجالس العلماء للزّجّاجي مجلس بين ثعلب وابن قادم[2]، ومجلس المفضَّل والكسائيّ بحضرة الرشيد، وهو خبر طويل[3]، ومجلس الأحمر مع أبي عبيدة، حين صحَّح للأحمر خطأه في

(١) السابق ١٧١ - ١٧٢.

(٢) السابق ١٣٨.

(٣) السابق ٣٥-٤١.

قصر مريطاء[1]. ومجلس المازني مع ابن السكيت وسؤاله عن وزن نكتل[2]، وقد تقدّم.

وقد أتتْ بعض هذه المجالس، بسبب ما جرى فيها بالويل والثبور على المؤدِّبين، كما جرى على ابن الأعرابي بسبب الأصمعيّ؛ إذْ دخَل الأصمعيُّ يوماً على سعيد بن سليم، وابنُ الأعرابيِّ يؤدِّبُ حينئذٍ ولده، فقال لبعضهم: أنشد أبا سعيدٍ، فأنْشَد الغلامُ لرجلٍ من بني طلابٍ شعراً رواه إياه ابن الأعرابي، وهو:

رأتْ ضِنْوَ أسفارٍ أميمةُ قاعداً
على نِضْو أسفارٍ فَجُنَّ جُنونُها
فقالتْ مِنَ ايِّ النّاس أنت ومن تكن؟
فإنّك راعي صِرْمةٍ لا تزينُها
فقلْتُ لها: ليس الشُّحوب على الفتى
بعارٍ ولا خير الرجال سمينها
عليك براعي ثَلَّةٍ مُسْلَحِبَّةٍ
يروح عليه محْضُها وحقينها
سمين الضواحي لم تُؤَرِّقْه ليلةٌ
وأنْعَمَ أبكار الهُمومِ وعُونُها

ورفع ليلة، فقال له الأصمعيُّ: منْ رَوَّاكَ هذا؟ فقال: مُؤَدِّبي، فأحضره واستنشده البيتَ، فأنشده ورفَع ليلة، فأخذ ذلك عليه، وفسَّر البيت، فقال: إنّما أراد: لم تُؤَرِّقْه ليلةً أبكارُ الهمومِ، وعُونُها: جمع عوانٍ، وأنعم: أيْ: زاد على هذه الصفة، وقوله: «سمين الضَواحي» يريد: ما ظهر فيه وبدا من [جسده] سمين،

(١) السابق ٩٣.

(٢) السابق ٣٠٠، وانظر ما سبق ص ١٠٢.

ثمّ قال لابن سلم: من لم يحسن هذا فليس موضعاً لتأديبِ ولدكَ، فنحَّاه[1].

وكما أصلح الأصمعي خطأ مؤدِّب، أصلح خطأه مُؤدِّب آخر؛ فقد صَحَّح أبو عمروٍ الشَّيبانيُّ للأصمعيِّ تصحيفه "تعتر" إلى "تُعْنز" في قول الحارث ابن حِلِّزة:

عَنَناً باطلاً وظلماً كَما تُعْـ

ـتَرُ عن حَجْرةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ[2]

* * *

ولا يحسن إخلاء هذه المقالةِ من ذكر شيءٍ من أخبار المؤدِّبين المستطرفة في غير صنعة التأديب، ومنها: كتب الكسائيُّ إلى الرشيد، وهو يُؤَدِّب محمّداً الأمين:

قُلْ للخليفة ما تقولُ لمن

أمسى إليك بحرمةٍ يُدْلي؟

ما زِلْتُ مُذْ صار الأمين معي

عبدي يدي ومطيَّتي رَحْلي

وعلى فراشي ما ينبِّهُني

من نومتي بقيامه قبلي

أسعى برجلٍ منه ثالثةٍ

نقصتْ زيادتها عن الرِّجْلِ

فامْنُنْ عليَّ بما يُسكِّنُهُ

عنِّي وأَهْدِ الغِمْدَ للنَّصْلِ

قال: فضحك الرشيد، وأمر له ببرذونٍ بسرجه ولجامه، وبجارية حَسْناءَ بآلتها،

(١) السابق ١٦-١٧.

(٢) ينظر الزجاجيّ / مجالس العلماء ١٨-٢٠.

وخادمٍ وعشرةِ آلاف درهم. قيل للكسائي: قد أبْحتَ علمَكَ للنّاسِ، فقال: يعين الله عليهم بالنِّسيان[1].

ولمّا عزم أبو محمد أحمد بن حاتم الباهليُّ على الحج، رغِبَ في شخصٍ مأمونٍ ليستودع لديه مصنّفات الأصمعيّ حتى يرجع من حجه، وكان قد حملها إلى أصبهان ليتكسَّبَ بها، «فدخل إلى عبد الله بن الحسن، وسأله أن يدلَّه على رَجُلٍ يُسَلِّم إليه دفاتره إلى أن يرجِعَ، فقال: عليك بمحمَّد بن العبّاس، وكان مُؤَدِّبَ أولاد عبد الله بن الحسين، مقبول القول، فسلم الباهليُّ إليه دفاتره؛ وخرج، فأنسخها محمّدُ بن عبد الله النَّاسَ، فقدم الباهليُّ، وقامَتْ قيامته، ودخل إلى عبد الله بن الحسن، وذكر له ما كان يأمل في دفاتره من التكسُّب بها، فجمع له عبد الله بن الحَسَن من أهل البلد عشرة آلافِ درهَم، ووصله الخصيب بعشرين ألفاً، فتناولها، ورجع إلى البصرة»[2].

و«حدّث عليُّ بن عبد العزيز بمكّة في المسجد الحرام، فقال: كنت عند مُؤَدِّبي الّذي علّمني الخَطَّ، فجيء له بِبُنَيَّةٍ له صغيرة، يقال لها وسناء، وعليها ثوب حريرٍ، فأجلسها في حجره، وأنشأ يقول:

وما الوسناءُ إلاّ شِبْهُ دُرٍّ ... ولا سيما إذا لَبِسَتْ حريرا

فأحسَنُ زِيِّها ثوبٌ نظيفٌ ... تُكَفَّنُ فيه، ثمّ أرى سريرا

تهادى بين أربعةٍ عجالٍ ... إلى قبرٍ فتملؤنا سُرورا»[3]

* * *

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٣ / ١٩٠ - ١٩١.

(٢) السابق ٢ / ٢٨٥.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ١٤/ ١٤، وعليّ بن عبد العزيز راوي الخبر توفي سنة (٢٨٧هـ).

كانت بداية التأديب لأولاد الخلفاء والأمـراء والكبراء في العصر الأُمَويِّ، وأوّل من وقـفنا على اتخاذه الـتأديبَ صنعـةً هو أبو الأسـودِ الدُّؤَليُّ صاحب البـدايات الأولى للنحو العربيّ ظالم بن عمرو (ت ٦٧ هـ) كان يعلِّم أولاد زيادِ ابن أبيه[١].

وكان أبو مـسلمٍ النَحويُّ مُـؤَدِّب عبد المـلك بن مروان[٢]. وكان عـبد الله بن المقفّع (ت ١٤٢ هـ) من المعلِّمين، ثُمَّ من البلغاء المتأدِّبين، ويكنى أبا عمرو، وكان يتولّى لآل الأهتم[٣]. وأمّا الوليد بن الحسين الكلبيّ المعروف بالشرقي ابن القطامي (ت ١٥٨ هـ) فقـد أدّب المهديَّ من خلفـاء بني العبّاس، ويُقـالُ: إنّه صَنَعَ بعض الأقاصيص حول الأمثال. وقـد أدّب الكسائيّ الرشيد وأولاده، وخلفه من بعدُ في تأديب أولاده عليٌّ بن المبارك أو ابن الحسن الأحمر (ت ١٩٤ هـ) وقد أدّب محمد ابن هارون الأمين، ولم يصـر إلى أحـدٍ قطّ من التـأديب مـا صار إليـه[٤]. ومن المؤدِّبين أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيـباني (ت ٢٠٦ هـ)، وله أخبار أوردنا شيئاً منها في هذه المقالة. وأدّب أبو توبة، واسمه زيادٌ عمر بن سعيد بن مسلم بن قتيبة ابن مسلم الباهلي[٥]. كما أدّبَ محمّد بن زيادٍ الأعرابيّ (ت ٢٣١ هـ) ولد سعيد ابن مسلم بن قتيبة هذا[٦]. كما أدّب أبو محمـد يحيى بن المبارك ابن المغيرة (ت ٢٠٢ هـ) المأمون، وله أخـبار ومجـالس أوردنا شيئـاً منها، كـما اتّصل أبو علي محـمد بن المسـتنير قطربٌ (ت ٢٠٦ هـ) بأبي دُلَف العـجلي وأدّب ولده[٧]، في

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٢ / ٣٥.

(٢) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويّين ١٢٥.

(٣) الجاحظ / رسائل الجاحظ (رسالة المعلمين) ٣ / ٤٤.

(٤) انظر الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ١٣٤، وياقوت / معجم الأدباء ٣ / ٦.

(٥) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ١٩٨.

(٦) القفطي / إنباه الرواة ٣ / ١٢٩.

(٧) ياقوت / معجم الأدباء ١٩ / ٥٣.

قصّة معروفة، بعد أن أدَّب لدى بعض خلفاء بني العبّاس[1]. وأدّب محمد بن هبيرة أبو سعيد الأسديُّ النحويّ، وكان عارفاً بالنحو الكوفي، واللغة، وفنون الأدب، يُقالُ: إنّه أدّب أولاد محمد بن يزداد وزير المأمون، وانقطع إلى عبد الله ابن المعتز[2]. ومن المؤدِّبين أيّام المتوكّل أبو مُسْهِرٍ أحمد بن مروان[3] (عاش في القرن الثالث).

وأمّا عيينة بن عبد الرحمن، أبو المنهال اللُّغويّ المهلبيّ تلميذ الخليل (عاش في القرن الثاني)، فقد أدّبَ الأميرَ أبا العبّاس عبد الله بن طاهر بن الحسين (ت ٢٣٠ هـ) وورد معه نيسابور وتوفِّي فيها[4].

وأمّا إبراهيم بن سعدان بن حمزة الشيباني، فأدَّبَ المؤيَّد، وكان ذا منزلةٍ عنده، ثمَّ أدّبَ ولده بـ" سُرَّ من رأى "[5].

وممّن أدّبَ المعتزَّ أحمد بن عُبيدِ بن ناصح، أبو عصيدة (ت ٢٧٣ هـ) وله معه قصصٌ وأخبار، أتينا على ذكر شيءٍ منه في هذه المقالة، كما أدّبه محمد بن عمران[6].

وأمّا هارون بن الحائك النحويّ الضرير فمن أعيان أصحاب ثعلب، حُجِبَ عن تأديب أولادِ الوزير عبيد الله بن سليمان بأبي إسحاقَ الزَّجَّاج في قِصَّةٍ معروفة؛ كيداً لثعلبٍ؛ لأنّه امتنع من تأديبهم، فماتَ هارونُ كمداً، ولم تحدَّد وفاته[7].

---

(١) انظر ما تقدم ص ٩٨، والبيهقي / المحاسن والمساوئ ٢ / ٢١٣.

(٢) انظر القفطي/ إنباه الرواة ٢ / ٨٥، وياقوت / معجم الأدباء ١٩ / ١٠٥.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ٥ / ٦٢.

(٤) القفطي / إنباه الرواة ٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥، وياقوت / معجم الأدباء ١٦/ ١٦٥-١٦٦.

(٥) القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٦٩، وياقوت / معجم الأدباء ١ / ١٥١.

(٦) ياقوت / معجم الأدباء ١٨ / ٢٧٢، ولم تحدَّد وفاته.

(٧) القفطي / إنباه الرواة ٣ / ٣٥٩ - ٣٦١، وياقوت / معجم الأدباء ٩ / ٢٦١.

وأدّبَ أحمد بن يحيى ثعلبٌ طاهر بن محمّد بن عبد الله بن طاهر ثلاث عشرة سنة[١].

وأدَّب محمد بن الوليد بن ولاّد التميميّ (ت ٢٩٨ هـ) ولد صاحب الخراج ببغداد[٢].

وأدّب أبو بكرٍ محمد بن الحسَن بن دريدٍ (ت ٣٢١ هـ) إسماعيل بن عبد الله ابن ميكال[٣].

وأمّا عليّ بن مهديّ الكسروي أبو الحسن الأصفهاني فهو أحد رواة الأخبار، وأدّب هارونَ بن عليّ بن يحيى بن المنجّم النّديم، وخلطه بخواصّه، واتّصل بأبي النّجم العضدي[٤].

وممّن يشار إليه هنا، وإن كان من أهل الأندلس أبو عبد الله محمد بن إسماعيلَ النَحويُّ الحكيم، من أهل قرطبة (ت ١٣٣ هـ) أدّب الحكم المستنصر الأُمَويَّ[٥].

ومنهم أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد العروضيّ (ت ٢٤٣ هـ) معلّم أولاد الرّاضي بالله[٦]، وجعفر بن هارون بن إبراهيم النحويّ الدينوريّ، نزيل بغداد (ت ٤٤٣ هـ)، كان يؤَدِّبُ بها أولاد ابن عبد العزيز الهاشمي[٧].

وأحمد بن إبراهيم بن سمكة القمّيّ (ت في حدود سنة ٣٥٠ هـ)، وهو نحويّ لُغويٌّ، انقطع إلى آل العميد لتأديبهم، وصنَّف لهم[٨].

(١) الزبيديّ / طبقات النحويين واللغويّين ١٤٨، وياقوت / معجم الأدباء ٥ / ١٠٦.

(٢) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢١٧، وياقوت / معجم الأدباء ١٩/ ٢٠٦.

(٣) القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٩١ - ١٩٢.

(٤) ياقوت / معجم الأدباء ١٥ / ٨٨، ٨٩، ٩٣.

(٥) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢٩٠.

(٦) الصفدي / الوافي بالوفيات ٧ / ٣٢٨.

(٧) القفطي / إنباه الرواة ١ / ٢٦٩.

(٨) السابق ١ / ٢٩.

ومنهم أبو سعيدٍ الحَسَن بن عبد الله السّيرافيّ (ت ٣٦٨ هـ) مؤدِّب الأمير أبي إسحاقَ بن معزّ الدولة أبي الحَسَن بن بويه[١].

وإسحاق بن إبراهيم البربريّ المجرِّر، ولا أعرف تاريخ وفاته، علّم المقتدر وأولاده، وهو أستاذ ابن مُقْلَة، لم يكن في زمانه أحسنُ خطّاً منه، ولا أعرف بالكتابة[٢].

الحسين بن محمد بن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) أدَّب بعض أولاد سيف الدولة الحمداني[٣]، وقد شاركه أبو علي الفارسيّ الفسويّ (ت ٣٧٧هـ)؛ إذْ كان عند ابن حمدان، فاستجلبه الدَّيْلمي لبني أخيه خُسْرْهْ يُؤَدِّبهم، فأقام ببغداد، ثمّ توجَّه إلى شيراز[٤].

وعليُّ بن منصورِ بن طالبٍ الحلبيّ (دوخلة) المولود سنة (٣٥١ هـ) أدّب أبا القاسم المغربيَّ الّذي وزر ببغداد، وقد قال: كُنْتُ أُؤَدِّبُ ولدي الحسين بن جوهر القائد بمصر، وكانا مختصّين بالحاكم[٥].

وأبو عبيدٍ أحمد بن محمد بن عبد الرَّحمن (ت ٤٠١ هـ) صاحب كتاب "غريبي القرآن، والحديث" أدَّب[٦].

وأبو عليّ أحمد بن الحسن المرزوقيّ شارح الحماسة والمفضّليّات، والفصيح (ت ٤٢١ هـ) كان معلِّم أولادِ بني بويْه بأصبهان[٧].

---

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٨ / ١٨٩.

(٢) السابق ٦ / ٦٠-٦١.

(٣) القفطي / إنباه الرواة ١ / ٣٢٥.

(٤) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٠.

(٥) ياقوت / معجم الأدباء ١٥/ ٨٣، ٨٦.

(٦) السابق ٤ / ٢٦٠، وطبع كتابه باسم "الغريبين غريبي القرآن والحديث".

(٧) ياقوت / معجم الأدباء ٥ / ٣٥.

وأبو بكر محمد بن أحمد بن عليّ المعمريّ (ت ٤٢٨ هـ) أديبٌ، كان يُؤَدِّبُ، وتخرَّج عليه جماعةٌ من أولادِ المشايخ[١].

وإسماعيل بن إبراهيم بن محمد الرّبعيّ اليمنيّ (توفي في أوّل القرن الخامس) كان مُؤَدِّباً لأولاد ملوك الصليحيّين[٢].

ومنصور بن المسلّم بن عليّ، أبو الحسن الحلبي[٣] المؤدِّبُ المعروف بابن أبي الدُّمَيْكِ (ت ٥١٠ هـ) كان يعلِّم الصِّبيان في مسجد رحبة البصل، ومسجد الرماحين[٤].

وعلي بن جعفر بن علي السّعديّ، ابن القطّاع (ت ٥١٤ هـ) كان يعلِّم ولد الأفضل بن أمير الجيوش بَدْرٍ الجمّاليّ، وزير الملقّب بالآمرِ بالله الذي كان بمصر متغلِّباً، وكان إمام وقته ببلده في علم العربية، وفنون الأدب[٥].

وسعد بن أحمد بن مكّي النِّيليّ (ت ٥٦٥ هـ) مُؤَدِّبٌ شيعيٌّ، كان نحويّاً عالماً بالأدب، مغالياً في التشيُّع[٦].

ونصر الله بن إبراهيم الدّينوريّ، ثُمّ البغداديّ الحمّامي المؤدِّب، ولد سنة (٥٢٠ هـ)[٧].

و«أبو محمدٍ إسماعيل بن موهوبِ بن أحمد بن محمدِ بن الخضر الجواليقي (٥١٢-٥٧٥هـ) كان إمام أهْل الأدب بعد أبيه أبي منصور بالعراق، واختصَّ

(١) السابق ١٧/ ٢١٤.

(٢) القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٩١.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ١٩/ ١٩٤.

(٤) القفطي / إنباه الرواة ٣ / ٣٢٦.

(٥) ياقوت / معجم الأدباء ١٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٦) السابق ١١ / ١٩٠.

(٧) السابق ٩ / ٢٢٦.

بتأديب ولدِ الخلفاء. . . كان مليح الخطّ، جيِّد الضّبط، يشبه خَطُّه خطَّ والده، وكان له معرفةٌ حَسَنَةٌ باللغة والأدب، وكانت له حلقةٌ بجامع القصر، يقرئ فيها الأدبَ كُلَّ جمعة»[1].

وأحمد بن إسحاقَ بن موهوب الجواليقيّ (ت ٥٨٧ هـ) تصدَّر لإقراءِ الأدب ببغداد[2]. وأمّا عليّ بن محمّدٍ السّخاويّ (ت ٦١٩ هـ) فكان يعلِّم أولادَ الأمير ابن موسك. . . وتردَّد إليه النّاسُ للتأدُّبِ[3].

الحسين البيهقي (لم يُعَيَّنْ تاريخ وفاته) أدّب أبا الفتح مسعوداً ولد عميد الحضرة[4].

أحمد بن عيسى (من أهل البصرة، لا تعرف وفاته) مؤدّب ولد إسحاق بن إبراهيم[5].

أبو المنذر يعلى بن عقيل العروضيّ الغزّيّ، من أصحاب الرواية، وكان يؤدّب أبا عيسى بن الرشيد[6].

وهناك أسماءٌ تركت لشهرتها مثل عليّ بن حمزة الكسائي، ويعقوب بن السكّيت، والزّجّاج، وغيرهم، ممّا قد ورد له ذكر في صحائف هذه المقالة. غير أنّ هذا لا يسوِّغ لنا ترك الإشارة إلى بعض مُؤَدِّبي الأندلس، وهم يعنون بالتأديب تعليم أولاد الخاصة أو تربيتهم أو تأديبهم، أو يخصون به تعليم الأدب وتلقينه، وسوف يتضح مرادهم حين ذكر بعض أعلام التأديب في بلادهم؛ كما كانت صنعة

(١) السابق ٧ / ٤٥.

(٢) القفطي / إنباه الرواة ١ / ٣٠.

(٣) ياقوت / معجم الأدباء ١٥/ ٦٦.

(٤) القفطي / إنباه الرواة ١ / ٣٢١.

(٥) ياقوت / معجم الأدباء ١٢/ ١٦٩.

(٦) الزَّبيدي / تاج العروس (عرض) ٥ / ٥٥.

التأديب صنعة رائجةً راقية؛ إذْ كان هناك مؤدِّبون اختصُّوا ببعض الأسر مثل أبي عمرٍو يوسف بن محمد البلّوطيّ (ت ٣٣٤ هـ) أدّب عند الحديريّين[١]. ومثل طاهرٍ الذي كان يؤدِّب بني هاشم وبني حُدير[٢]. وصالح بن معافى الذي كان يُؤَدِّب عند بني فُطَيْسٍ[٣]. وعبد الرحمن بن الشمر بن نمير الّذي كان يؤدِّبُ بني أبي عَبيدة[٤].

وبعض هؤلاء اتّصل بالخلفاء الأمويّين في الأندلس، مثل عبد الرحمن بن الشمر بن نمير، اتّصل بالأمير عبد الرحمن بن الحكم[٥].

وهناك من اختصّ بتأديب أولاد الخلفاء، مثل جابر بن غيث (ت ٢٩٩هـ) وكان هو وأخوه عبد الرحمن عالمين بالعربية والشعر، وضروب الأدب، وكانا مشهورين بالفضل والدّين، ولما شبَّ لهاشم بن عبد العزيز بنونَ شاور أصحابه ممّن يتصرّفُ في العمالات بالكور، فيمن يستأدبه لبنيه، فأشير له إلى عبد الرحمن وأخيه، فاستجلبهما من كورة "لبلة"، وكانت وطنهما، فتعاصى عليه عبدالرحمن، وأجابه جابر، فكان ذلك سبب سكناه قرطبة، وكان من أحدِّ الناس في التأديب، فقلّ من تأدّب عنده إلاّ وتعلّق من العلم بمسكةٍ[٦].

والغازي بن قيس (ت ١٩٩ هـ) كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيّام دُخولِ الإمام عبدالرحمن بن معاوية الأندلس، ويقال: إنّه أدَّب ولد عبدالرحمن هذا[٧].

(١) الزُّبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢٩٨.

(٢) السابق ٢٩٢.

(٣) السابق ٢٥٨.

(٤) السابق ٢٥٨.

(٥) السابق ٢٦٦-٢٦٧.

(٦) السابق ٢٦٦.

(٧) السابق ٣١١-٣١٤.

ومحمّد بن يحيى الرباحيّ (ت ٣٥٨ هـ) استأدبه أمير المؤمنين الناصر لولده المغيرة[١]. وسوّار بن طارق، أدّب ولد هشام بن عبدالرحمن، وولد الحكم[٢].

وأبو عبد الملك عثمان بن المثنّى (ت ٢٧٣ هـ) أدَّب أولاد عبدالرَّحمن بن الحكم، وأولاد محمد[٣].

وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل الحكم (ت ٣٣١ هـ) أدَّب أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله[٤].

ومحمّد بن محمد بن أرقم، كان مُؤَدِّباً لأمير المؤمنين عبدالرحمن النّاصر، وكان أبوه يُؤَدِّبُ أبناء الخلفاء[٥].

وأبو الوليد هشام بن الوليد الغافقي (ت ٣١٧ هـ) أدّب أمير المؤمنين عبدالرحمن، وابنه الحكم أمير المؤمنين[٦].

وعبدالله بن سليمان (دَرْدَر) (ت ٣٢٤ هـ) استأدبه أمير المؤمنين الناصر لدين الله لولده[٧].

وأبو عبدالله المكلفخي، أدّب بعضَ ولد أمير المؤمنين[٨].

وأبو القاسم أصبغ (عاش في القرن الرابع) استأدبه أمير المؤمنين الناصر لدين الله لابنه المغيرة، فأُحْمِدَ في تأديبه[٩].

---

(١) السابق ٢٥٧.

(٢) السابق ٢٦٦.

(٣) السابق ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) السابق ٢٨٢.

(٥) السابق ٨٤.

(٦) السابق ٢٩٨.

(٧) السابق ٣٠٤.

(٨) السابق ٣٠٥.

(٩) السابق ٢٣٨.

وطائفة أخرى أدّبوا أولاد السلاطين من دون تحديد، مثل موسى بن عبدالله الطرزي[1]. وعلي بن الحسين القنوخي المعروف بالخروقي[2].

وبعض المؤدِّبين لم يُؤَدِّب إلاّ عند العظماء كأبي العبّاس وليد بن عيسى الطبيخي (ت ٣٥٢ هـ) الذي كان ذا علم باللغة والشعر، وكان له حظ من علم العربية، حَسن التلقين، تنافَسَهُ الملوك، فلم يُؤَدِّب إلاّ عند الجلّة[3].

وما قال الزّبيديّ كلمته هذه «فلم يُؤَدِّب إلاّ عند الجلّة» إلاّ لأنه قد فهم من صنعته التأديب أنها صناعةٌ عامّة يتخذها المؤدِّب يتكسّب منها، ويجلس لأولاد العامّة في مكتبه أو مسجده، أو أيِّ مكانٍ يتخذه، ليأخذ عنه من يعتاده الأدب بمفهوم ذلك العصر، ولهذا لو نظرنا في تراجم مؤدِّبي الأندلس لوجدنا فيها ما يدل على أنّ التأديب ليس خاصّاً بأبناء الجلة والعظماء، والملوك، كما هو الحال عند أهل المشرق في بداية التأديب؛ إذ نجد في ترجمة أبي عبدالله محمد بن إسماعيل الحكم: أنجب على يديه جملةٌ من المؤدَّبين، والشعراء والكُتّاب[4]. وفي ترجمة الغازي بن قيس: «كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيّام دخول الإمام عبدالرحمن بن معاوية الأندلس»[5]. ونجد ما تقدّم في ذكر جابر بن غيث: «كان من أحد النّاس في التأديب، فقلّ من تأدّب عنده إلاّ تعلّق من العلم بمسْكة»[6].

وقد ذكر الزّبيدي في كتابه طائفةً من أهل الأندلس ممّن كان لا يختصُّ بتأديب الجلّة والعظماء، وإن أدّب بعضهم الجلّة والعلية من القوم، في بعض أيّامه، أو بعد ما اشتهر، ومن هؤلاء:

(١) السابق ٢٤٣.
(٢) السابق ٣٠٤.
(٣) السابق ٢٧٧.
(٤) السابق ٢٥٥.
(٥) السابق ٢٦٧.
(٦) السابق ٢٩٢.

أبو بكر بهلول الخثعمي المقصدر[١]. وأبو عمرو عثمان بن عمرو الموروري[٢]. وعبد الصمد[٣]. وسعيد بن قدامة البلّوطي[٤]. وأيُّوب مصوّر (الذهن)[٥]. وأحمد بن محمد الأعرج[٦] (ت ٣٤٥ هـ). ومِلْحان بن عبيد الله بن مِلْحان (ت ٣٤٠ هـ). وأبو عبد الله محمّد بن عبد الله المكفوف القرشيّ، المعروف بابن الأصفر[٧]. وأبو القاسم عبد الوَهّاب بن يونس[٨]. وأبو محمد فرح (ابن قرْلمان)[٩].

إنّنا لو نظرنا فيما أوردناه من أسماء المؤدِّبين لوجدنا أنّ بعضهم اتّخذ التأديب صناعةً، ففتح حلقته لتأديب عامّة الصبيان حتّى صارت صنعتهم أشبه بصنعة المعلمين، وحتى عسر ـ عند بعض من كتب عن المعلمين ـ التفريق بين هذا النوع والمعلمين. وهؤلاء في حقيقة أمرهم معلِّمون لا مُؤَدِّبون، وإن كانت لهم عنايةٌ ما بالأدب، خاصّةً في أواخر العصر العبّاسيّ، كما يتضح ذلك في ترجمة الضحاك ابن مزاحم، أبي القاسم البلخي المفسّر المحدِّث النحويّ (ت ١٠٥ هـ)؛ إذ كان يؤدِّب الأطفال، فيقال: كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبيّ، وكان يطوف عليهم على حمارٍ[١٠]، وندرك من هذا أن المقصود بالتأديب هنا هو التعليم.

(١) السابق ٢٩٣.

(٢) السابق ٢٩٢.

(٣) السابق ٢٩٩.

(٤) السابق ٢٩٩.

(٥) السابق ٢٩٩.

(٦) السابق ٣٠٣.

(٧) السابق ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٨) السابق ٣٠٥.

(٩) السابق ٣٠٨.

(١٠) ياقوت / معجم الأدباء ١٢ / ١٥-١٦.

ومثلـه ما في ترجمـة علي بن أحمـد بن سلَّك الفالي (ت ٤٤٨ هـ) المعروف بالمؤدِّب، وله شعر في المدرِّسين، وهو منهم يقول فيه:

تصـدَّر للتـدريسِ كُلُّ مُـهَـوَّسٍ
بليـدٍ يسـمَّـى بالفـقـيـه المدرِّسِ
فـحقٌّ لأهل العلـم أن يتـمـثّلوا
ببيتٍ قديمٍ شاع في كلِّ مجلسِ
لقـد هُزِلَتْ حتَّى بدا من هُزالهـا
كُلاها، وحتَّى سامها كُلُّ مُفْلِسِ[1]

ومثله مـا قيل عن أبي سهلٍ محـمّد بن عليّ الهرويّ النحـويّ اللُّغويّ (٣٧٢-٤٣٣هـ): رئيس المؤدِّبين بجامع عمرو بن العاص[2].

وهذا قريب ممّـا تعورف عليه في الأندلـس؛ لأنّ التأديب لم يكن خاصّـاً بأبناءِ عليةِ القوم، بل كان المعلّمـون الذين يعلّمون الصبيان في حلقاتِ المسـاجد يسمّون مؤدِّبين، وصناعتهم تسمّى تأديباً، ولـهذا يختلف التأديب ـ أوّل أمره ـ في المشرقِ عنه في المغرب.

كـمـا يلحظ أنّ هناك أُسـراً اتّخـذتْ الـتـأديب صناعـةً، مـثل آل اليـزيديّ، والجـواليقي، وكـان يعقـوبُ بن السِّكِّيت يؤدِّب مع أبـيه بمدينة السـلام في درب القنطرة صبيان العامّة، حتّى احتـاج إلى الكسب، فتعلَّم النّحو، فاختلف إلى قومٍ من أهل القنطرة، ثمّ اختلف إلى بـشرٍ وإبراهيم ابني هارون، أخوين كانا يكـتبان لمحـمّد بن طـاهر، ثمّ أدّب لابن طاهر، ثمّ لولد المتـوكل[3]. ومثل هـذه الأسر

(١) السابق ١٢/ ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) السابق ١٨/ ٢٦٣.

(٣) انظر الخبر مفصلاً عند ابن الأنباريّ في نزهة الألبّاء ١٧٩.

تتوارث هذه الصناعة كابراً عن كابر.

كما يلحظ في صنعة التأديب عند المتأخّرين عنايتهم بالخطّ، حتى عدوا تعليم الخطّ، وتحسينه من التأديب، وما من شكٍّ أنّه تأديبٌ لكنّه ليس بالمعنى المتبادر عند ذكر التأديب والمؤدِّبين.

كما يلحظ من قراءة أسماء المؤدِّبين وجودُ فِئةٍ منهم من المتميِّزين في علوم العربيّة لغةً أو نحواً، إلى جانب الأدب، والرواية، ومعاني الشعر، وفروع العربية الأخرى. ويتفاوت المؤدِّبون في إتقان هذه العلوم والمعارف والآداب، ويعنى بعضهم بشيءٍ، ويقصّر في أشياء أخرى، وإن كان الظاهر أن المستأدبين يلحّون على تنوُّع معارف المؤدِّب، وآدابه، وسعة روايته، وحُسْنِ تأديبه وتربيته، وسداد تصرّفه، وإحكام منطقه، وجمال خَلْقه وخُلُقه، ولعلّ هذا الحرص هو الذي جعل بعضهم يجعل لولده أكثر من مُؤَدِّبٍ، ليسدَّ كُلُّ واحدٍ ما قَصُر عنه غيره، أو عجزت عنه همته، وكلّت دونه آلته.

كما يلحظ أن بعض المؤدّبين قد يتقن صنعةً أخرى مثل الكتابة كما هو حال "أحمد بن إبراهيم، أبي نصر الباخرزي"؛ إذ كان كاتباً، مؤدِّباً، أدّب أبا علي الحَسَن بن أبي الطيِّب الباخرزي، وكان أديباً فاضلاً ذا بيانٍ ومعرفةٍ تامَّةٍ باللغة والعربية[1]، عاصر ابن العميد، وراسله.

لو أعدنا الكرَّة في كتب التراجم لوجدنا فيها عباراتٍ من مثل: «أبو سهل محمد بن عليّ... رئيس المؤدِّبين بجامع عمرو بن العاص»[2]. ونجد مثل «لزم التأديب في داره بقرطبة»[3]. ولوجدنا في ترجمة الغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ): «كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيّام دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس»[4].

(١) القفطي / إنباه الرواة ١ /٢٨-٢٩.

(٢) ياقوت / معجم الأدباء ١٨/ ٢٦٣.

(٣) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٣١٤.

(٤) القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٠٤.

كما نجد في ترجمة أحمد بن محمد المديني المغربي النحوي: «كان عروضياً نحوياً، يُؤَدِّبُ الصِّبيانَ ويقفهم على حدود العربية»[1]. ولوجدنا في ذكر علقمة ابن أبي علقمة مولى عائشة: «كان يروي عن مالك بن أنس، وكان له مكتبٌ يعلِّم فيه العربيّة والنحو، والعروض، ومات في خلافة المنصور»[2]. والغريب أنّه يعلِّم العروض في هذه الفترة المتقدِّمة. ولوجدنا في ترجمة أبي محمد عبد الله بن حرب المعروف بـ"بجنين" (ت ٣٣٤ هـ): «من أهل العلم بالنحو، دقيق النظر فيه، صحيح القياس على مسائله»[3].

وفي ترجمة أحمد بن نعيم: «كان ذا علمٍ بالعربيّة، وكان مقدَّماً في صناعة الشعر، وله حظٌّ من البلاغة، وأدَّب بجيّانَ وطليطلة»[4]. ولوجدنا في ترجمة محمد بن إسماعيلَ: «كان بصيراً باللُّغة والشعر، وكان يُؤَدِّب بمسجد مَتْعة»[5]. ومثل ما في كتب التراجم: «كان مُؤَدِّباً بالعربية»[6]. كما نجد من يُؤَدِّب في غير علمٍ واحدٍ، مثل أبي بكر بهلولٍ الخثعمي: «كان مُؤَدِّباً بالنّحو والشعر»[7]. ومثل أبي الأصبغ عيسى بن أبي جرثومة الخولانيّ:

«كان يُؤَدِّب بالنّحو، والحساب، والعروض، والقرآن»[8]. و«كان أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن الأصفر مُؤَدِّباً بالقرآن والشعر والحديث والنحو»[9]. فهذا

(١) ابن قتيبة / المعارف ٥٤٩.

(٢) الزبيدي / طبقات النحويين واللّغويين ٢٥٥.

(٣) السابق ٢٨٧.

(٤) السابق ٢٦٥.

(٥) السابق ٢٩٠.

(٦) السابق ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٨.

(٧) السابق ٢٩٢.

(٨) السابق ٢٩٢.

(٩) السابق ٣٠٣.

كُلُّه يَدُلُّ على أن التأديب في لسان الأندلسيين مـرادفٌ للتعليم، كما هو الحال عند بعض المشارقة كالجاحظ في رسالة المعلّمين. ومثل مـا في خبر علقمة مولى عائشة الآنف ذكره، ومثل ما جـاء في ترجمة أبي سَهْلٍ الهرويّ المتقدّم. وترجـمة أحمد ابن محمد بن عبد اللهِ بن يوسف الصَّفَّار الشافعيّ (ت بعد سنة ٤١٦ هـ): «أنفق عمره على مطالعة العلوم، وتدريس مؤَدِّبي نيسابور»[١].

وقد يطلق التعليم على ما يعرفُه المشارقة بالتأديب، مثل ما جاء في ترجمة عليّ ابن جعفـر بن عليّ السَّعْديّ، ابن القطّاع (ت ٥١٤ هـ): «كـان يعلِّم ولَدَ الأفضل ابن أمير الجيوش بدرٍ الجمّاليّ، وزير الملقَّب بالآمر بالله»[٢].

ولم يكن عند عامَّة مُؤَدِّبي الأندلس كبير علمٍ بالعربيّة، ولا عناية بدقائقها، ولا إدراكٌ لغوامضـها، حتّى رجع محمد بن يـحيى الرّباحيّ (ت ٣٥٨ هـ) من رحلته إلى المشرق: «فـقدم قرطـبة، فلزم التأديب بهـا في داره، فانجفـل الناس إليه، ثُمَّ انتقل إلى أحد الحديريّين، فمكث عنده مُدَّة، وقُرئ عليه كتابُ سيبويه، وأخذ عنه رواية، وعقد للمناظرة فيه مجلساً في كُلِّ جمعة، ولم يكن عند مُؤَدِّبي العربيّة ولا عند غيرهم ممّن عُنِي بالنّحو كبير عـلم، حتّى ورد محمّد بن يحيى عليهم، وذلك أنّ المؤدِّبين إنما كـانوا يعـانون إقامـة الصِّناعـة في تلقين تلامـيذهـم العوامل ومـا شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخـذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية، وغوامـضها، والاعـتلال لمسائلهـا، ثمّ كانوا لا ينظرون في إمـالةٍ ولا إدغامٍ، ولا تصـريفٍ ولا أبنية، ولا يجـيبـون في شيءٍ منها، حـتَّى نهج لهم سبـيلَ النظر، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في الشرق من استقصاءِ الفن بوجوهه، واستيفائه على حدوده، وأنهم بذلك استحقُّوا اسم الرياسة»[٣].

(١) ياقوت / معجم الأدباء ٤ / ٢٦٢.

(٢) السابق ١٢/ ٢٧٩- ٢٨٠.

(٣) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ص ٣١١.

إنّ عمل المؤدّبين كان له حسنةٌ عظيمةٌ على اللُّغة العربيّة؛ لأنّه جَعَلَ لسانَ عليةِ القومِ لساناً عربيّاً مبيناً، يحاكي الفصاحة في مهدها، ويبحث عن أسبابها، ويعالج ألسنة القوم حتى تصحّ بها ويتقنوها، والمعروف أنّ الطبقة الاجتماعيّة العالية قدوة المجتمع، فصارت اللغة والأدب، ومحاكاة فصحاء الأعراب مطمحاً تهفو إليه الأنفس؛ إذْ أسهم المؤدّبون في جعل العربيّة الفصحى المعربة التي تعنى بنظام الكلام وجماله، وتركيبه وموسيقاه، وما فيه من معنىً مستطْرَفٍ، وكنايةٍ بديعة، وتوريةٍ جميلة، وكان للمؤدبين اليد الطولى في جعل هذه لغة عِلْيَةِ القوم، وكبرائهم، أمرائهم ووزرائهم، ولاتهم وقوّادهم، عمّالهم وأمنائهم، حجّابهم وكتّابهم، ومن يمت إليهم بسببٍ من اختصاصٍ أو منادمة، وهذا دفع من يتّصل بهم بسببٍ إلى أن يبذُل جهده في تعلُّم الفصحى، ومجاراة من يطمحون إلى مجالسته ومحادثته؛ لأنّه قد استقرَّ في حِسِّهم أنّه لن يستسيغ خطاباً أو حديثاً يخرُج عمّا أُدِّب به، وتأدّب عليه. وعمّا لُقِّنَ أو تلقَّن من طرق الحديث والقول، أصواتاً، وبنية، وتركيباً.

وقد تنافس عليةُ القوم في اتخاذ المؤدِّبين، فكانت سوقه رائجة، وبضاعته نافقة، وأرزاقهم دارّةً، ومكانتهم سامقةً، ومجدهم ذا بسوقٍ، وصار بإمكان المؤدِّب المتميز أن ينتقل من كريم إلى أكرم، ومن وزيرٍ إلى أمير، كما صار حديث المجالس، ويستنزل الشخص حتى ينزل عن مؤدِّب أولاده لمن هو أعلى منه مقاماً من أميرٍ أو خليفة؛ كي يربِّيَ المؤدِّب صاحب السمعة ولده وذريَّته.

كما صار التأديب صنعة تطمح إليها نفوسُ كثيرٍ من أهل العلم والأدب، يتكسَّبون من ورائها، ويبنون بها مجدهم، ويصلون إلى مدارج الجاه من خلاله، فانتقلوا من بلدٍ إلى بلدٍ طلباً في أن يعرفوا، ويتخذوا مُؤدِّبين، وبحثاً عن أسبابٍ تصلهم بهذه الصنعة، وفي الأخبار التي أوردناها عن الكسائي، وسيبويه، والفرّاء،

والأخفش وغيـرهم ممّن ترك بلده، وارتحل إلى بغداد أو غيرها من الـبلاد ما يغني عن إعادة ذكرها، وكفايةٌ.

ولو رجعت بصـرك إلى ما أوردناه من أخـبارٍ، وسقناه من أحـداثٍ، وأعملْتَ فكرك فيه لوجدت اللُّغـةَ العربيّة بفنونها تحتلُّ المكانة الأعلى، وصـدر المطالب فيما ينبغي أن يكون عليه المؤدِّب.

إن التأديب لا يقلُّ في تعليم اللغـة العربيّة شأناً عن التدوين والتـأليف، غير أنّ الثاني خلّده المؤرِّخـون والمترجمون، في حين أهملوا الأوّل، إلاّ من إشـارةٍ عابرة في ترجمة حافلة؛ لقلّة شأنه في نظرهم، وهكذا حاف التاريخ عليهم، فأسقط أو غضَّ من قدر عنصـرٍ فاعلٍ في درس العربيّة، كـان له أثرٌ واضح في صناعة علوم العربية، وتخريج أدبائها، وإبراز شعرائها، ومعـرفة كتّابها، وخطبائها، وأصحاب ناصية الكلمة والبيان في مجالس الخلفاء والوزراء، وأصحاب الشأن.

إنّ المؤدِّب لا يمكن أن يُقْبَلَ مؤَدِّباً حتى يكون لديه الحد الأدنى من أسباب تعليم العربـية وآدابها روايةً ودرايـة. وأن يتمرّس بتلـقينها، وتـقريب آدابها إلـى نفوس النّاشئةِ، ومن هم في مستقبل الأيّام عليةُ المجتمع، ورجاله، وقادته، ووزراؤه.

وكان النفار من التـأديب مظِنَّةَ النّقص، والجور، كما أشـرنا إلى ذلك في خبر الوليد بن عبد الملك، وكما يروى عن المعتصم أنّه «كان عريّاً من العلم، وكان معه صبيٌّ يتعلَّمُ في الكُتَّـاب، فقال له أبوه: مات ـ يا محمَّـدُ ـ غلامُك. فقال: نعم، واستراح من الكُتَّاب! فقال أبوه: وإنّ الكُتَّاب ليبلُغُ منك هذا! دعوه، ولا تعلّموه، وكان يكتب ويقرأ ضعيفاً»[1]. فانحطَّ في الأدب درجةً عن إخوته، خاصّةً الأمين والمأمون.

(١) الصفدي / الوافي بالوفيات ٥ / ١٤٠.

وكان الإقبال على التأديب وقبوله علامةً مضيئة، ومناراً هادياً في طريق المجد، كما كان الحالُ مع المأمون وأخيه الأمين اللّذين كانا في غاية الإقبال، ونهاية التقدير والاحترام للمؤدّب، وإن مارس معهما أساليب غير مرضيَّةٍ في نظر المستأدِب أو المؤدَّب، وفيها ما يمكن تفسيره بالإهانة؛ إذْ كان بعضُ المؤدِّبين ـ كما سبق في بعض الأخبار ـ يضربون ويعنفون من يُؤَدِّبونهم، ولو علتْ منزلتهم، كما كان يفعل أبو محمّدٍ اليزيدي مُؤَدِّب المأمون، والحُسين اللُّؤْلؤي، وكما فعل أبو عصيدة أحمد بن عبيد بن ناصح مع ابن المعتزّ.

فإذا انضمَّ إلى حِذْقِ المؤدِّب، ورغبة المؤدَّب، وإقباله، النِّيَّةُ الحَسَنَةُ في التأديب أينع وآتى ثماراً، وكانت له حصيلة نامية، وثمرة جنيَّة، وقطوفٌ دانية، فيتخرّج عليه أو به ثُلَّة، منهم من قد تؤول إليه الإمامة والصدارة في فنٍ أو علم، قيل عن عبد الله بن حرب: «من أهل العلم بالنحو، دقيقُ النّظَرِ فيه، صحيح القياسِ على مسائله، وكان مُنجِباً في المتأدِّبين عنده»(١). وقالوا عن أبي الحَسَنِ مفرّج بن مالكٍ النحويِّ: «كان ذا إصلاحٍ وفضْلٍ ونيَّةٍ في تأديب المتعلِّمين»(٢). فإذا انضمّ إلى ذلك هيبةُ المؤدِّبِ تتامَّ الخير من أطرافه، كما قِيلَ عن أحمد بن محمد الأعرج الّذي طلب النحو ليستعينَ به على معاشه لاشتغاله بعلم الحديث والفقه: «كان مهيباً في تأديبه، وكان لا يجترئ أحدٌ ممّن تأدَّبَ عنده أن يظهرَ غير الجدّ»(٣).

وإذا أكمل المؤدِّبُ آلَتَه فحازَ تميُّزاً بإجادةِ فنٍّ القول من شعر أو نثر، أو خطابة أو كتابة، أو بإجادة تناول مسائل العلم وأقسامه، وتقسيماته وتفريعاته، كان ذلك إيذاناً بأن يعلَّ المؤدَّبُ أو ينهل، وأن يقبل على أمره، فيصلح شأنه؛ لأنّ الذّوقَ يفعل في العلم ما لا تفعله الصناعةُ، فالّذي يقدِّم الأدبَ، وهو يملك موهبة

(١) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢٨٧.

(٢) السابق ٢٧٣.

(٣) السابق ٢٩٩.

الأديب، وذوقه وحِسّه غير من يدرُسه لغيره وهو عارٍ من كُلِّ شيءٍ من الأدب، والذي يتناولُ علماً من العلوم مع إدراك بدهيّاته، وفهم أصوله ومبادئه، والتصرُّف فيها عند التفريع والتقسيم، لدرسه من الأثر ما ليس لدرس من يتّخذ ذلك صناعةً، خالياً من الذّوقِ، وحُسْنِ الإدراك، أو لأنَّ حياته اضطرّته لهذه الصنعة، «قال عبد الأعلى: رأيت الطِّرماح مُؤدِّباً بالرّيِّ، فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجالِ، ولا أجذبَ لأسماعهم إلى حديثه منه، ولقد رأيت الصِّبيانَ يخرجونَ من عنده، وكأنّهم قد جالسوا العلماء»[1]، وقالوا عن أحمد بن محمّدٍ المدينيّ النحويّ: «كان عروضيّاً نحوياً، يُؤَدِّبُ الصبيان، ويقفهم على حدود العربيّة، وله أشعارٌ حسان»[2]. وقالوا عن أحمد بن نعيم: «كان ذا علمٍ بالعربيّة، وكان مقدَّماً في صناعة الشعر، وله حظٌّ من البلاغة»[3]. وعن محمد بن إسماعيل: «كان بصيراً باللّغة والشعر»[4].

وقد مرَّ بك فيما سقناه من أحاديث وأقاصيص، وحكاياتٍ وأخبار أن بعض المؤدِّبين أئمّةٌ في علوم، ويشار إليهم، خاصّة في علوم العربيّة، من أمثال الكسائيّ، وثعلب، والفرّاء، وقطرب، والأحمر، والأخفش، وغيرهم، بل إنّ بعض المؤدِّبين أئمة في علومٍ أخرى إلى جوار تقدمُّهم في العربيّة، من أمثال أبي عبيدٍ القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤ هـ) وكان مؤدِّباً، وولي قضاء طرسوس أيّام ثابتِ ابن نصر بن مالك، ولم يزلْ معه، ومع ولده، وحجَّ بعد قدومِه بغدادَ، وبعد أنْ صنَّف ما صنَّفَ من كتبه[5].

(١) الجاحظ / البيان والتبيين ٢ / ٣٢٣.

(٢) القفطي / إنباه الرواة ١ / ١٠٤.

(٣) الزبيدي / طبقات النحويين واللغويين ٢٦٥.

(٤) السابق ٢٩٠.

(٥) ابن قتيبة / المعارف ٥٤٩.

وكان إماماً في الحديث، والفقه، كما نبغ في اللغة. وكان أبو سعيدٍ المؤدِّب واسمه محمد بن مسلم بن أبي الوضّاح من قضاعةَ، ضمَّه المنصور إلى المهديِّ، ثمَّ ضمَّه بعده إليه سفيانُ بْنُ حسين، وكان محدّثاً[1]. ومثله أبو معاويةَ النّحويُّ شيبان بن عبدالرحمن... وكان يؤدِّبُ ولد داود بن عليّ، وكان محدّثاً[2]. وكان جعفر بن هارون بن إبراهيم بن الخضر بن ميدان أبو محمّدٍ النّحويّ الدّينوريُّ يُؤَدِّبُ أولاد ابن عبد العزيز الهاشميّ، وسمع عليه الحديث سنة أربع وأربعين وثلاثمائة[3].

وهذا لا يلزمه ضرورةً تميُّزُ جميع المؤدِّبين؛ إذ ذكروا عن أحمد بن عبدالعزيز ابن فرج القرطبي (ت ٤٠٠ هـ) معلّم المظفّر عبد الملك بن أبي عامرٍ أنّه كان في غفلته من آيات ربّه[4]. وإذْ رووا عن الفرّاء أنّه قال: «ذكرْتُ للقعود مع المعتصم حيث نشأ، ولزمْتُ نحواً من شهرين، فلمّا عزم على ذلك جاءَ رجلٌ يقالُ له أبو إيادٍ، فطلب القعود معه، فَسُئِلَ لينظر ما مقداره في العربيّة، فقيل له: كيف تقولُ: يا زيدُ أقبلْ؟ فقال: يا زيدُ أَقْبِلْ. قيل: فما هذه الضّمّة؟ فقال: الواو الّتي في قوله: وأقبِلْ، فارتُضِيَ، وأُقْعِدَ مع المعتصم، فاستغنى، وأُزِلْتُ أنا». وكان يعجب بهذا، ويتعجَّب منه، ويقول: الدنيا لا تأتي على استحقاق[5].

وبعد، فإنّه يحسن بنا أن نختم هذا البحث بكلمة ابن خلدون عن تعليم العربيّة ودرسها في بلاد الأندلس؛ إذ يقول: «وأهل صناعة العربية بالأندلس، ومعلّموها

(١) السابق ٥٤٩.

(٢) السابق ٥٤٩.

(٣) القفطي / إنباه الرواة ١ / ٢٦٩.

(٤) السابق ١ / ٣٧-٣٨.

(٥) الزجاجي / مجالس العلماء ٦٢.

أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقُّه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنقطع النَّفْسُ لها، وتستعدُّ إلى تحصيلها وقبولها، وأمّا من سواهم من أهل المغرب وإفريقيَّةَ وغيرهم، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً، وقطعوا النّظر عن التفقُّه في تراكيب كلام العرب إلاّ إنْ أعربوا شاهداً أو رجَّحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذّهنيّ لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه، فأصبحت صناعة العربيّة كأنّها من جملة قوانين المنطق العقليّة، أو الجدل، وبَعُدَتْ عن مناحي اللِّسان وملكته. وما ذلك إلاّ لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه، وتمييز أساليبه، وغفلتهم من المران في ذلك للمتعلِّم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان... وتَعَلَّمْ ممّا قرّرناه في هذا الباب أنَّ حصول ملكة اللسان العربيّ، إنّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتّى يرتسم في خياله المنوالُ الّذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسجُ هُوَ عليه، ويتنزَّلُ بذلك منزلةَ من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتّى حصلت له الملكةُ المستقرَّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم»[1].

ولعلّ ما أشار إليه ابن خلدون، ووصفه بقيَّةٌ ممّا ترك المؤدِّبون من أثرٍ في درس العربيّة في البلاد الأندلسيّة قبل أن يأخذوا بتفريعات المسائل، والتوسُّع في العلل، وما لا يحتاج إليه من المسائل، ولا تدعو إليه حاجةٌ عمليّة في تعليم اللسان العربيّ، وهي المرحلة التي كانت قبل محمد بن يحيى الرباحيّ (ت ٣٥٨هـ) على حدِّ قول الزّبيْديّ، فأهل الأندلس مزجوا بين طريقتين: طريقة مؤدِّبي الأندلس في التعليم والتلقين، وهي طريقة تعنى بالناحية العملية، وتربية السلوك اللّغوي، وبناء

(١) ابن خلدون / المقدمة ٥١٤.

الملكة اللسانية، والاقتصار على الضروريّ من القواعد النظريّة، وطريقة نحاة المشرق الّذين توسَّعوا في الصّناعة، وتفريعاتها، ولوازمها، وعللها. وهي طريقةٌ تخلّى عنها الأندلسيّون حين أغرقوا في الجانب النظري في تعليم العربية، فأقبلوا على شرح كتب النحو، وشواهدها، ومتون العربية، ومستدركاتها كما هو حال درس العربية في أواخر عهد المسلمين بالأندلس؛ إذ لم يختلف عمّا عند غيرهم.

وليتهم وغيرهم من مقيمي دروس العربيّة استمرّوا على طريقتهم الأولى، مع إفادة عمليّة ممّا لدى غيرهم، فعُنوا بالتلقين، وتعليم الضروريّ من مسائل النحو والصرف، وتركوا ما وراء ذلك، مع عنايةٍ خاصة بمستجاد القول من شعرٍ ونثر، وتربية المتعلّم على ذلك، وتقويم لسانه، وتعهّده بالدربة والمران، حتى يكون قادراً على الإبانة عمّا يكنُّه ضميره من فكر، وما يختلج في صدره من مشاعر، غيرَ عاجزٍ عن التعبير أو قاصرٍ في الإبانة.

إن مراجعة قولِ ابن خلدون، وإعادة النظر فيه تقف المتأمّل فيه على أنّ ابن خلدون كأنما يعني طريقة مُؤَدِّبي الأندلس، وبعض مُؤَدِّبة المشرق الّذين أسهموا في جعل العربيّة الفصحى لغةً حيَّةً، يتخاطب بها علية القوم، وأهل العلم. كما أسلفنا.

وبالنظر في قول ابن خلدون، وما أسلفناه من حديثٍ عن عمل المؤدِّبين يمكن لنا أن نخرج بوصف طريقتهم في درس العربية، مما يمكن إجماله في الآتي:

١ـ الاقتصار على الضّروريِّ من قواعد اللغة، من غير توسّع فيما لا تدعو إليه حاجة.

٢ـ العناية بالمرويِّ عن العرب روايةً، وحفظاً، ودرساً.

٣ـ العناية بفنون الكلام، وطرائق القول من خطابةٍ، وكتابة، وحديثٍ، وإنشاد شعر، وإلقاء، ومحاولة النسج على منوال المستجاد من النصوص المروية، ومحاكاتها.

٤ـ النّظر إلى علوم العربيّة نظرةً شاملةً، لا تقتصر على علمٍ دون علمٍ، ولا على فنٍّ دون فنّ، وهذا لا يمنع بروزَ فَنٍّ على غيره لدى المؤدِّب.

٥ـ العناية بما وراء القواعد الظاهرة من مكمّلاتِ المعاني، وموجبات الاستحسان.

٦ـ التربية اللغوية السلوكية الشاملة بدءاً من الاستماع، وانتهاءً بالإيداع.

ولعلّ من اللائق أن نختم هذا البحث بكلمة للمؤدِّب أبي يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِّكِّيت، قال فيها: «خذ من الأدب ما يعلَقُ بالقلوب، وتشتهيه الآذان، وخذ من النحو ما تُقِيمُ به الكلامَ، ودَعِ الغوامض، وخُذْ من الشعر ما يشتمل على لطيف المعاني، واستكثر من أخبار الناس، وأقاويلهم، وأحاديثهم، ولا تولَعَنَّ بالغثِّ منها»[1] وبأن نقول إنّه لا يمكن تمثُّل مجتمع التأديب، كما هو، وإنّما يمكن لنا أن نقبس شيئاً ممّا كانوا يعدُّونه أوّليّات أو أولويّات، ومتابعة المستأدِب، والأسس التربويّة للتأديب، والأهداف المتوخّاة منه، وهذا ممّا يعيننا على مراجعة شيءٍ من حياتنا العلمية الثقافية، خاصّةً الجانب اللّغويّ والأدبيّ، ومناهج تعليم العربية وتلقينها. تمَّ. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصّالحات.

* * *

(١) ياقوت / معجم الأدباء ١ / ٧٦.

ملخص البحث

تناول البحث فئةً نُسِيَتْ من تاريخ اللُّغة العربيّة، وهي فئةٌ عاملة، لها أثرٌ عظيم في تعليم العربية وتلقينها، وجعلها لغة الطبقة العليا في المجتمع الإسلامي الذي تتصارع فيه لغاتٌ، في عصوره الزاهية، وهي فئة تسلَّحت بأسلحة العلم، والأدب، والخلق، والفطنة.

وقد بيّن بداية التأديب في العصور الإسلامية من العهد الأمويّ، وأوّل من وقفنا عليه من المؤدِّبين، وذكر أشهرهم فيما تلا من عصور إسلاميةٍ زاهيةٍ، وكان من بين هؤلاء المؤدِّبين أعلام لهم مكانةٌ في علوم العربية المختلفة روايةً ودرايةً.

والتأديب ذو أصولٍ عربيَّةٍ عريقةٍ تمتدّ إلى حياة الجاهلية قبيل الإسلام، وتتصل بالحياة الإسلامية في عصورها الأولى، وقد زادت طبيعة الحياة الإسلامية من الحاجة إليها، خاصّةً للقادة، والأمراء، وكبار العمّال والولاة، والخلفاء.

وفي الحياة العلميّة طائفتان: المؤدِّبون، والمعلّمون، وقد سعى البحث إلى التفريق بينهما، وبيان أوجه الاشتراك والافتراق، من خلال ذكر آراء بعض المتقدّمين. وتصوّر أهل الأندلس للتأديب، والتفريق بين التأديب عند المشارقة، والتأديب عند المغاربة.

ثمّ أتى البحث على صفات المؤدِّب الخُلُقيّة، والخَلْقيَّة، والعلمية، والأدبيّة، والتربوية؛ إذ التأديب عملٌ تربويّ شامل يؤخَذُ فيه الطفل إلى تربيةٍ معرفيّة وسلوكية في علومٍ شتَّى، تعطيه قدرةً على التحكّم بناصيةِ البيانِ، والكلمة، بعد أن يعتادَ ويحفظ مُسْتجاد الكلام وطريفه، ويمرن عليه.

كما تحدَّث عن الأسباب التي يجود بها عطاء المؤدّب ويزكو، ويجعله ينجبُ فيمن يؤدِّبهم، سواءٌ كانت هذه الأسبابُ راجعةً إلى الذوقِ الأدبيِّ، أو الإدراك العلميّ.

والتأديب صنعةٌ من الصنائع، اختلفت مواقف الناس والعلماء فيها ما بين قبولٍ ورفضٍ وطلب، وكان هناك أسرٌ اتخذت التأديب صناعة، وتوارثته كابراً عن كابر، وكان للمؤدِّبين مكانةٌ عاليةٌ عند من أدّبوهم أو استأدبوهم، وإن حاول بعضٌ الغضّ من شأنهم، والحطّ من منزلتهم.

ويتم اختيار المؤدِّب إمّا بالترشيح، وإمّا بالامتحان، وإمّا بهما معاً، وكانت الامتحانات تعقد للمؤدِّبين بين فترةٍ وأخرى.

وكانت العلاقة بين المؤدِّب والمؤدَّب تتردَّد بين الحسن والسوء، والحب والكراهة، والاحترام والتقدير، وهي علاقة حميدة في الغالب.

كما عالج البحث بعض ظواهر في التأديب، مثل نسبةِ المؤدِّب إلى من يؤدِّبهم، وظهور مؤدِّباتٍ للنساء كنَّ يؤدِّبْن نساء قصر الخليفة أو وزيره.

وأورد البحث شيئاً ممّا كان يدور في مجالس المؤدِّبين، وما فيها من نكاتٍ، وطرائفَ أدبيَّةٍ وعلميّة، وشيئاً من طريف أخبارهم في غير صنعة التأديب.

ثم انتهى البحث إلى أثر عمل المؤدِّبين على العربيّة في جعل اللغة الفصحى لغةَ العليةِ، وأنّ عملهم لا يَقِلُّ شأناً في تعليم اللغة العربيّة، ونشرها، وحفظها عن التدوين، غير أن عمل المؤدِّبين لم يحفظه التاريخ كما حفظ عمل المؤلفين. وقد قصرت عنه عناية أصحاب التراجم.

كما انتهى إلى أنّ طريقة المؤدِّبين ذات أثرٍ في بناءِ الملكة اللُّغويّة، وأنّها أجدى من تلقين القواعد النظرية، وهو شيءٌ أشار إليه بعض السالفين.

كما أجمل البحث طريقة المؤدِّبين في درس العربية بالاقتصار على الضروريِّ من قواعدها، مع العناية بالنص الأدبي، والمران على الإنشاء، وتنمية المهارات، ومحاولة محاكاة النصوص العالية، مع النظرة الشموليّة التي لا تقتصر على علمٍ أو فنٍّ من العربيّة، والعناية بالذوقِ، مع التربية اللغويّة السلوكيّة الشاملةِ ابتداءً من السماع، وانتهاءً بالإبداع.

والبحث يوصي بمراجعة طريقة المؤدِّبين للإفادة منها في درس العربية في عصرنا الذي تعدّدت فيه أوجه الحاجة للغة، وتأكدّت فيه الحاجةُ إلى مهاراتٍ وفنونٍ من القول، لم تكن حاجةُ أسلافنا إليها بمثل حاجتنا.

المصادر والمراجع

- ابن الأنباريّ: كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧).

* نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار نهضة مصر، القاهرة.

- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨).

* الصلة. الناشر الدار المصرية للتأليف والترجمة. سنة ١٩٦٦ م .

- البيهقي: إبراهيم بن محمد (من أعلام القرن الخامس).

* المحاسن والمساوئ. تصحيح محمد بدر الدين النعساني. الناشر مكتبة الخانجي. القاهرة، ١٣٢٥ هـ .

- التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد (ت ٤١٤).

* البصائر والذخائر. تحقيق د. وداد القاضي. دار صادر، بيروت، ط الأولى.

- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨).

* مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وولده محمد. الناشر المكتب التعليميّ السُّعوديّ بالمغرب.

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥).

* البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. مصر.

رسائل الجاحظ (رسالة المعلمين) تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. مصر.

- الحموي: ياقوت (ت ٦٢٦).

* معجم الأدباء. مكتبة عيسى البابي الحلبي، مصر.

- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨).

* المقدمة. تحقيق د. محمد الإسكندراني. دار الكتاب العربي. ط الأولى، سنة ١٤١٧ هـ .

- الزُّبيْدِي: أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩).

* طبقات النحويّين واللغويّين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، مصر، عام ١٩٧٣م.

- الزَّبيديّ: السيِّد المرتضى محمد بن محمد (ت ١٢٠٥).

* تاج العروس. صورة. بيروت.

- الزّجّاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠).

* مجالس العلماء. تحقيق عبد السلام هارون. وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت سنة ١٩٦٢م.

- السِّيرافي: أبو سعيدٍ الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨).

* أخبار النحويّين البصريّين. تحقيق د. محمد إبراهيم البنا. دار الاعتصام، القاهرة، عام ١٤٠٥ هـ، ط الأولى.

- الصّفدي: خليل بن أيبك (ت ٧٦٤).

* الوافي بالوفيات. ط جمعية المستشرقين الألمانيّة. تحقيق جماعة.

- أبو الطيّب اللُّغوي: عبد الواحد بن عليّ (ت ٣٥١).

* مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، ط الثانية.

- ابن عبد ربّه الأندلسيّ: أحمد بن محمد (ت ٣٢٧).

* العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وزميليه. ط الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٦٧ هـ، القاهرة.

- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦).

* المعارف. تحقيق د. ثروت عُكّاشة. ط الثانية، سنة ١٩٩٦م، مصر.

- القفطي: أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦).

* إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصرية، سنة ١٣٦٩ هـ.

- ابن هشام: عبد الملك (ت ٢١٨).

* السيرة النبويّة. تحقيق مصطفى السقا وزميليه. ط الثانية، سنة ١٣٧٥ هـ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

* * *